



طَلِقْ تَنْوِيرًا

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

أوهام الليبرالية والانسلاخ عن الهوية

كريمة الروبي

تمثل الهوية حائط صدٍ أمام كل محاولات تفكيك المجتمعات والسيطرة عليها، لذا طالما عمل الاستعمار بصورتيه القديم والحديث على التأثير في هوية الأمم التي يسعى للسيطرة عليها.

ولا شك في أن ما تحققه أية أمة من انتصارات على مدار تاريخها هو ما يدفع الفرد للتباهي بهويته وتمسكه بها، وقد انتشرت في الفترة الأخيرة أفكار تدعو للتقليل من تلك الانتصارات بل وتحويلها إلى هزائم ليفقد المواطن احترامه لتاريخ وطنه ويشعر بالدونية أمام المستعمر.

فقد سطر الشعب المصري بدماء وتضحيات أبنائه ملحمةً في الصمود ضد أكبر قوى استعمارية في المنطقة في معركة 1956، واتجهت انظار العالم كله إلى بورسعيد الصامدة التي لقت المعتدين درساً لم ينسبه التاريخ، وكانت مصدر إلهام لكل دول العالم الثالث الطامحة في التحرر والاستقلال، وعلى الرغم من اعتراف الدول المعتدية بالهزيمة وكيف أدت إلى غروب شمس الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وعلى الرغم من ذلك كله، وبدلاً من تعظيم تلك الذكرى التي تساهم في غرس الانتماء لدى المواطنين وتحفزهم لمواجهة أية تحديات، فقد انتشرت أفكار تقلل من هذا الانتصار بل حولته إلى هزيمة.

وتعتبر اللغة من أهم مقومات الهوية، فاللغة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمكانة الشعب الذي يتحدث بها، فكلما علا شأنها ارتفع شأن الشعب، وبالتالي فالحفاظ على اللغة هو حفاظ على الهوية.

وقد لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دوراً كبيراً في تعميق أزمة الهوية والانسلاخ عنها حيث تنتشر فيها العديد من الأفكار التي تخدم المستعمر فبدلاً من تسببها في إحداث تقارب بين المواطنين العرب، انتشرت نزعات شوفينية وإقليمية وأصبحت النغمة الأعلى هي إنكار الجذور العربية لكل قطر عربي، فهذا فرعوني، وذاك سرياني، إلخ... وليس عريباً.

ويمكن القول أيضاً إن الحكومات تتحمل مسؤولية كبيرة تجاه أزمة الهوية التي تعاني منها الأمة، حيث يدفع انتشار الظلم الاجتماعي المواطن لكي يشعر بالاغتراب داخل وطنه، كذلك رضوخ تلك الحكومات للمستعمر يجعله يحتقر وطنه وينظر للأخر نظرة انبهار فيقل انتماؤه لوطنه ويشعر بالدونية التي تحوله إلى مجرد عميل لأعداء وطنه، كما أن ضعف الإنتاج الفكري والثقافي يسهم في عملية التغريب التي يعاني منها المواطن.

طلقة تنوير 73: الليبرالية الحديثة قومياً هل التوراة من جزيرة العرب؟

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 كانون الثاني 2021

كل عام وأنتم بخير

محتويات العدد:

- أوهام الليبرالية والانسلاخ عن الهوية/ كريمة الروبي
- الليبرالية وأنواعها وتناقضاتها وانقلاب دورها المعاصر/ إبراهيم علوش
- تهافت المرجعيات: من العصر القديم حتى الليبرالية الحديثة/ بشار شخاترة
- العرب والمشروع الطوراني-العثماني الجديد/ إبراهيم حرشاوي
- هل جاءت التوراة من جزيرة العرب؟ (مراجعة لمقولة كمال صليبي)/ ناجي علوش
- الصفحة الثقافية: أضواء النجومية ووحل التطبيع/ طالب جميل
- قصيدة العدد: قصيدة ذكري اللواء/ سليمان العيسى
- رسم العدد: الدور المشبوه بين الليبرالي والمحتل

لمتابعنا انظر:

لمتابعنا على فيسبوك، ابحث عن:
لائحة القومي العربي/ الصفحة الرسمية

روابط صديقة:

موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:

arab.nationalist.moderator@gmail.com



إن التقليل من إنجازات الماضي وعدم الحفاظ على اللغة يؤديان إلى انسلاخ الفرد عن المجتمع الذي ينتمي إليه وبالتالي لا يعود لديه الدافع للدود عنه، ويتحول إلى مجرد فردٍ أناني لا يفكر في المجتمع بل يفكر في مصلحته الذاتية فقط، وهي الفكرة التي قام عليها الفكر الليبرالي الذي يسعى لتعظيم حرية الفرد سواء سياسياً (حرية الرأي والمعتقد) أو اقتصادياً (حرية الملكية وتعظيم مكاسب ومنافع المصالح الذاتية)، إلا أن التجربة أثبتت أن الشعارات التي يرفعها أنصار النموذج الليبرالي هي مجرد أوهم فلا حرية للفرد إلا بتحرر المجتمع والوطن والأمة، وأن المنفعة الذاتية للأفراد الذين يحتكرون الثروة تتعارض مع المنفعة المجتمعية، أما فيما يخص حرية التعبير فهي مرهونة بقوة رأس المال، فليس هناك أفق أمام الأفكار الأخرى للانتشار حيث أن من يملك التكنولوجيا والمال يستطيع تمرير أفكاره ونشرها على نطاق واسع دون غيره، وهذا في حد ذاته يتعارض مع مبدأ الحرية التي يرفعون شعاراتها، فالحرية تحتاج لتكافؤ الفرص ليعبر كل فكر عن نفسه، كذلك فهم رغم رفعهم شعار حرية التعبير عن الرأي فهم الأكثر استخفافاً وهجوماً على الأفكار التي تتعارض معهم، كما أن الحكومات التي تتغنى ليل نهار بالحرية وحقوق الإنسان لا تتوانى عن قمع شعوبها إذا ما تعارض ذلك مع توجهاتها ولا

ننسى مظاهر القمع التي تعرض لها متظاهرو فرنسا الذين اعترضوا على قانون العمل الذي يجحف حق العمال، كذلك مظاهرات وول ستريت في الولايات المتحدة التي كانت ضد تغول الرأسمالية والتي تم التعامل معها بمنتهى القسوة، فالشعارات التي يرفعها داعمو التوجه الليبرالي هي مجرد شعارات لا تمت للواقع بصلة وتؤدي لتعظيم قيمة فرد من شريحة اجتماعية-اقتصادية معينة على حساب المجتمع ما يؤدي إلى انسلاخ الفرد عن مجتمعه ويصبح وطنه هو رأسماله ومصالحه الخاصة فيتحالف مع عدو وطنه خدمةً لمصلحته الذاتية وبالتالي أصبح المفهوم الليبرالي هو مفهوم يتناقض مع الهوية والقومية ويؤدي لمسخ الهوية وهدم الثوابت.

ولا يمكن أن نتجاهل ذلك التحالف بين أنصار كل من الإسلام السياسي والتوجه الليبرالي فهم مختلفون ظاهرياً متفقون في جميع الممارك التي يخوضونها، فما هم سوى أدوات للغرب لتحقيق أهدافه، فكلاهما يسهم بأدواته المختلفة في تمييع فكرة الهوية كما يرغب المستعمر، سواء الإسلاميون الذين طالما روجوا لتكفير الفكر القومي والانتماء الوطني أم الليبراليون الذين يعظمون حقوق الأفراد على حساب الجماعة.

إن المثقفين العرب يقع على عاتقهم عبء الحفاظ على الهوية، إلا أن النسبة الأكبر من مثقفينا قد صاروا مجرد وكلاء للغرب، يبشرون بأفكاره ويتبنون قضايا حقوق الإنسان والحيوان كبديل عن قضايا الأمة وتحررها واستقلال قرارها، أي أن معظمهم أصبح ليبرالياً من الناحية العملية.

إن قضية الهوية ليست قضية ثقافة وتراث بل إن الهوية هي التي تربط المواطن بجذوره والتي ما أن يشعر بالانتماء لها فإنه يسخر نفسه لعلو شأنها بينما من يشعرون بالدونية واحتقار أوطانهم هم الطابور الخامس لأعداء أمتهم سواء كان ذلك عن وعي أو غير وعي.

إن المعركة التي نخوضها اليوم ضد الليبرالية هي معركة دفاع عن الهوية والانتماء، وهي معركة لا يمكن خوضها من دون إعلاء راية المشروع القومي. وإذا كان هناك من يسأل: ما العمل في مواجهة الليبرالية؟ فإن الخطوة الأولى التي لا بد من أن نخطوها لمواجهة مشروع التفكيك الليبرالي هي تعميم الوعي القومي العربي، بصفته وعياً ينطلق من حس جمعي وانتماء يتجاوز الأفراد.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

الليبرالية وأنواعها وتناقضاتها وانقلاب دورها المعاصر*

إبراهيم علوش

حول الرأسمالية والليبرالية:



كان النظام الإقطاعي هو النظام السائد في أوروبا الغربية في القرون الوسطى، وقد استمرت بقاياه حتى القرن الثامن عشر والتاسع عشر في بعض البلدان الأوروبية الغربية، وكانت من سمات النظام الإقطاعي الاجتماعية استناده إلى نظام طبقي يقسم المجتمع إلى لوردات ونبلاء ورجال دين لا يتساوون مع عامة الشعب، لا سيما طبقة الفلاحين التي تشكل الجزء الأساسي من عامة الشعب.

ترافق صعود الرأسمالية في أوروبا الغربية مع تزايد التجارة، ومن ثم الثورة الصناعية التي قلبت موازين الاقتصاد والمجتمع والسياسة؛ ففي حيز الاقتصاد، انتقل مركز الثقل من الزراعة إلى الصناعة؛ وفي حيز المجتمع، انتقل مركز الثقل السكاني من الريف إلى المدينة؛ وفي حيز السياسة، انتقل مركز الثقل من الإقطاعيين والكنايس إلى أصحاب المصانع وأصحاب رأس المال، وإلى رجال الدولة الحديثة، الدولة القومية المركزية التي قامت بعدما شعر أصحاب المصانع ورأس المال بضرورة توحيد السوق القومية؛ وفي حيز الثقافة، انتقل مركز الثقل من رجل الدين إلى المثقف الحديث (ولم تحدث مثل هذه النقلة في مجتمعنا العربي لأننا لم ننجز عملية الانتقال إلى الحداثة).

لم يحدث الانتقال من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي سلمياً أو بسلاسة، بل اقتضى قروناً من الصراعات الدموية والسياسية والثقافية، وحتى الدينية، بين الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تمثل النظام الإقطاعي من جهة، وحركات الإصلاح البروتستنتي التي كانت تمثل البرجوازية الصاعدة.

لا بد من التشديد هنا على أن مصطلح "برجوازية" لا يعني طبقة الأغنياء بالمطلق في أي عصر، بل يعني طبقة التجار الكبار والصناعيين الذين نشؤوا مع تبلور النظام الرأسمالي من رحم النظام الإقطاعي، أي أن المصطلح هو نتاج تطور تاريخي محدد يرتبط بسكان المدن في العصور الوسطى الذين كانوا حاضنة الرأسمالية الأولى في ظل النظام الإقطاعي، وكلمة برجوازية مشتقة من bourg أو burg ومنها جاءت كلمة bourgeois أي ساكن المدينة، ومنها bourgeoisie، أي طبقة البرجوازيين (وأصل الكلمة عربي بالمناسبة، وتعني "برج"). ولا يصح إطلاق وصف "برجوازي" على الأغنياء في العصر الإقطاعي أو العبودي (السابق للإقطاعي) أو على المجتمعات التي لم تدخل مرحلة التحول الرأسمالي في آسيا وإفريقيا.

الرأسمالية نظام يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج (المصانع والأصول المادية عامة)، وعلى الإنتاج السلعي (أي الإنتاج لا للاكتفاء الذاتي للمنتج أو للقريبة، بل للسوق ككل)، وعلى هيمنة السوق (بمعنى أن قوة العمل مثلاً تصبح سلعة خاضعة للبيع والشراء، وهذا اسمه العمل المأجور، الذي يُباع ويُشترى أسوة بأي سلعة).

الإقطاع بصفته نظاماً يربط الفلاحين بالأرض (نظام الفئانة)، وبصفته يمثل تفتتاً سيادياً وقانونياً يفرض عشرات المكوس والضرائب والقوانين المختلفة بحسب الإقطاعيات المنتشرة على أرض أمة من الأمم، مثلاً ألمانيا في بداية القرن التاسع عشر كانت تتألف من أكثر من 500 إمارة ودويلة ودوقية إلخ...



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

مثل عائقاً أمام الرأسمالية من ناحيتين: أ – حرية الناس في الانتقال للعمل في المدن في المصانع والمؤسسات الرأسمالية الصاعدة، وب – حرية البضائع ورأس المال في الانتقال من إقطاعية أو إمارة إلى أخرى إلا بعد دفع الكثير من الضرائب المتعددة وإلا بعد الانصياع لقوانين وتعليمات قد تكون متنافرة أو لا عقلانية، وهو ما شكل عائقاً كبيراً لتوسع السوق.

كان الإقطاعي يحكم مستنداً إلى "حق إلهي" ما يُعد التشكيك فيه نوعاً من "الكفر" و"التجديف"، وكان الظل الأعلى للنظام الإقطاعي، وهو الكنيسة الكاثوليكية، يتخذ طابعاً دينياً، وكان البشر في ظل الإقطاع والكنيسة مجرد "رعايا"، لا مواطنين، وكانت "حقوق" الإقطاعيين والنبلاء ورجال الدين حقوقاً تستند إلى ألقاب موروثية تُعد بحد ذاتها "تميزاً"، جاء عبر "حق الولادة" القائم على منظومة يصعب فيها الصعود الاجتماعي، أي تحسين الإنسان لوضعه الاجتماعي، إلا من خلال الصدق، أو التدخل الإلهي، ومن هنا الروايات الكثيرة في تلك المرحلة مثلاً عن الأمير الذي أحب ابنة قرية وتزوجها، أو عن ابن القرية الذي تتيح له الصدق وفروسيته أن يتحول إلى أمير، إلخ...

الليبرالية هي الرد الأيديولوجي للبرجوازية الصاعدة على منظومة الألقاب الموروثة الإقطاعية والامتيازات الأرستقراطية، وهي تتمحور حول التركيز على الفرد، وحقوق الفرد، ومركزية "الإنسان" (اقرأ: الفرد) في العالم، وعلى تساوي المواطنين أمام القانون، وحرية الحركة والتنقل والتعبير، والأهم، حرية الملكية الخاصة وعصمتها، وبشكل عام، أن المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات أمام الدولة-الأمة Nation-state التي تمثلهم.

فكرة الدولة-الأمة على المقدار ذاته من الأهمية هنا مثل فكرة الحرية الفردية في تلك المرحلة التاريخية من الصراع بين الإقطاع والرأسمالية، ولم تكن تؤخذ الأولى (الحرية الفردية) من دون الثانية (تأسيس دولة قومية موحدة)، فالثورة الفرنسية عام 1789 مثلاً، كنموذج أعلى للثورة البرجوازية ضد الإقطاع، تضمن برنامجها نقطتين أساسيتين: أ – المواطنة والحرية الفردية، ب – حق تقرير المصير، المستمد من سيادة الشعب على أرضه، نقيضاً لسيادة النبلاء والكنيسة والإقطاعيين.

الرأسمالية طرحت منذ البداية، في مواجهة التفكك الإقطاعي، شعاراً تعبويماً يصب في مصلحتها، وفي مصلحة عامة الناس في آن معاً، وهو: Laissez faire et laissez passer، وهو يعني "دعه يعمل، ودعه يمر"، وهو تعبير فرنسي يعود إلى القرن السابع عشر، وتم تعميمه في القرن الثامن عشر من قبل الاقتصاديين الفرنسيين.

تعبير ليبرالي Liberal مشتق من كلمة Liber اللاتينية، وتعني "حر"، وفي مواجهة الإقطاع كان ذلك يعني ضرب منظومة الامتيازات الإقطاعية والكنسية على حساب عامة الشعب عموماً والفلاحين خصوصاً، فالحرية الفردية لا تُطرح بالمطلق، بل تطرح كبرنامج لطبقة برجوازية ناشئة ونظام رأسمالي صاعد في مواجهة طبقة النبلاء والكنيسة وملاك الأراضي الطفيلية، وفي مواجهة منظومة إقطاعية أقلية، والهدف من طرح مسألة الحرية الفردية كان تفكيك المنظومة الإقطاعية، وارتباط الفلاح بالأرض، وحق التاجر والمستثمر بالعبور عبر إمارات الإقطاعيين، وإحلال منظومة أخرى رأسمالية محلها، لمصلحة الطبقة البرجوازية الحديثة في النهاية.

شعار الثورة الفرنسية Liberté, égalité, fraternité، أي "حرية، مساواة، أخوة"، الأساس فيه هو الحرية والمساواة، أما الأخوة فهي للاستهلاك، فشعار الحرية يعني التحرر من القيود الإقطاعية والكنسية الكاثوليكية التي كانت تعيق التراكم الرأسمالي أساساً (قبل أن تقوم تلك الكنيسة بتحول لمسايرة الزمن)، وشعار المساواة يعني الإطاحة بمنظومة الرتب والألقاب الإقطاعية والكنسية الموروثة والمكفولة بـ "حق إلهي" مزعوم، ولأن النظام الإقطاعي في فرنسا رفض التأقلم مع متطلبات التطور التاريخي، فقد تمت الإطاحة به بعنف ودموية، ونشأت من لدن الثورة الفرنسية علمانية متشددة، أما في بريطانيا في المقابل، في القرن السابع عشر، قبل أكثر من 150 عاماً من الثورة الفرنسية، فقد تم الوصول إلى تسويات تاريخية، بحيث تبقى الملكية صورياً، وبحيث يكون الملك أو الملكة هو الرئيس الرسمي للكنيسة البروتستانتية، الدين الرسمي للبلاد، بموجب قانون سنه البرلمان البريطاني عام 1701، اسمه الـ Act of Settlement. ومن البديهي أن هذا تحول إلى مسألة صورية في بريطانيا مثل الملكية ذاتها.

في الخلاصة، كان الطرح الليبرالي البرجوازي في بلدان أوروبا الغربية في تلك المرحلة طرماً تقديمياً، بمعنى أنه كان طرماً يخدم التطور التاريخي وتحرر الإنسان في التخلص من ربطة النظام الإقطاعي، وهو ما أتاح تأسيس دول قومية مستندة إلى مبدأ المواطنة على أنقاض التفكك الإقطاعي والسلطة الكنسية العابرة للقوميات،



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد



ولكن القوة الدافعة للطرح الليبرالي كانت الطبقة البرجوازية الصاعدة، وسنأتي لاحقاً لأبعاد نشر المفاهيم الليبرالية المستندة إلى مرجعيات فردية في أمم لم تحقق وحدتها القومية بعد، أو بلدان برسم التفكيك، مثل بلدان الأمة العربية، ومن دون البعد الآخر للثورة الفرنسية وهو حق تقرير المصير (والوحدة) للأمم.

حمل نابليون بونابرت معه رسالة الثورة الفرنسية إلى أمم أوروبا في بداية القرن التاسع عشر، أما الحرب العالمية الأولى عام 1914 فقد أسفرت عن انحلال أربع إمبراطوريات عابرة للقوميات تحمل بقايا إقطاعية في جوهرها، منها الإمبراطورية العثمانية، وكان الطرح الليبرالي العربي والإسلامي، كما تجلى في مشاريع النهضة العربية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، قد ربط بين الحريات الفردية وتحقيق مشروع نهوض قومي أو مشروع تأسيس دولة وحدة عربية، وقبلها كان ذلك هو مشروع إبراهيم ابن محمد علي باشا عندما جاء من مصر إلى بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إذ يركز كثيرون على مشروعه الوحدوي، من دون أن ينتبهوا إلى أن إبراهيم باشا كان يحمل معه أيضاً مشروع دولة المواطنة العابرة للمل والنحل، فقد كان إبراهيم باشا بكل معنى الكلمة نابليون العرب.

حول العلاقة بين الليبرالية السياسية والليبرالية الاجتماعية:

تتخذ الليبرالية معاني مختلفة على الصعيد الاقتصادية والسياسية، فهي على الصعيد الاقتصادي حرية العمل والاستثمار والبيع والشراء من دون قيود، وحق الملكية الفردية وحصانتها، وهي على الصعيد السياسي حرية التعبير والاجتماع، وحق التساوي أمام القانون، واستقلالية القضاء، والانتخاب الحر لممثلين للشعب ينوبون عنه في تقرير شؤونه، وهي الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لضمان منع الاستبداد، وهي تربط مشروع الحكم برضا المحكوم، كما أن الليبرالية تعني على الصعيد الفلسفة السياسية اعتبار الفرد مرجعية الحق والباطل والصح والخطأ وعدم تدخل الدولة أو المجتمع فيما يراه الفرد مناسباً له إلا بمقدار ما يمكن أن يضر به الآخرين.

على الرغم من أن جذور المفاهيم الليبرالية تمتد عميقاً في تاريخ الفكر والفلسفة إلى اليونان والشرق، فإن ذلك لا يهم كثيراً في الواقع، لأنها لم تتخذ صورة فلسفة شائعة تمثل مصلحة طبقة اجتماعية محددة في مرحلة تاريخية محددة إلا مع صعود الرأسمالية، وهي مرحلة عصر التنوير الأوروبي Age of Enlightenment، وكان الفيلسوف السياسي الأبرز المعبر عنها هو البريطاني جون لوك (1632-1704) John Locke الذي ما برحت أفكاره تُعد المرجعية الأولى للفكر السياسي الليبرالي الكلاسيكي.

قبل الدخول في الفرق بين الليبرالية السياسية من جهة والليبرالية الاجتماعية من جهة أخرى، لا بد من تحديد الفرق بين الليبرالية السياسية من جهة والليبرالية الاقتصادية... وهو جوهر التناقض الذي زرع انشقاقاً عميقاً في التقليد الليبرالي وصولاً إلى تاريخنا المعاصر.

الليبرالية السياسية، كما جاء آنفاً، تنطلق من مفهوم دولة المواطنة، وحرية التعبير والاجتماع والإعلام، وممارسة المواطنين لسيادتهم على أرضهم من خلال ممثلين منتخبين، وحقهم بالتصويت العام، وبأن يحاكموا محاكمة عادلة أمام قضاء مستقل وغير متحيز، ومحو الامتيازات الأرستقراطية (المرتبطة بالإرث الإقطاعي والكنسي).. ولننتبه جيداً إلى أن محور الليبرالية السياسية فيما يتعلق بعلاقة المواطن بالدولة هو فكرة المساواة، أي تساوي الحقوق والواجبات.

الليبرالية الاقتصادية، بالمقابل، تركز على حقوق الملكية وقديستها، والأسواق الحرة، والتجارة الحرة، والاستثمار غير المقيد، وباختصار، حق رأس المال في أن يفعل ما يريد، وهو جوهر فكرة الحرية في الفكر الليبرالي: مصلحة الطبقة البرجوازية.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

أما الحديث عن حرية المواطن في أن يأكل ويشرب ويلبس ويعيش كما يريد في حياته اليومية فلم يعد يُطرح اليوم إلا في مواجهة القيود الدينية والاجتماعية المحافظة، وما عدا ذلك فإنه نوعٌ من ذر الرماد في العيون.

التناقض الذي نشأ في رحم الفكر الليبرالي، بعد انتصار الثورات البرجوازية في أوروبا الغربية، كان بين فكرة الحرية (الاقتصادية أساساً) من جهة، وفكرة المساواة (السياسية والاجتماعية أساساً) من جهة أخرى. فـ"الحرية الاقتصادية" في ظل النظام الرأسمالي أفضت إلى نشوء طبقة برجوازية تملك من الإمكانيات والسلطات والنفوذ والتأثير والقدرة على التحكم بمخرجات النظام السياسي ما كان يحلم به الإقطاعيون والنبلاء حليماً، وهو ما حوّل شعار المساواة أمام القانون إلى أضحوكة في ظل تصاعد الفقر والبطالة والأزمات الاقتصادية والتفاوت الطبقي في النظام الرأسمالي.

من هنا شكّلت النزعة الاشتراكية، لا سيما في فرنسا في القرن التاسع عشر (كما مثلها الفلاسفة سان سيمون وفورييه وبرودون)، حتى قبل تبلور الفكر الماركسي، استمراراً تاريخياً لشعار المساواة في الثورة الفرنسية، ولكنه استمرراً اقتضى الانتقال من نقطة مرجعية إلى أخرى، أي من مرجعية الفرد إلى مرجعية الجماعة، وهذا شكل تحولاً في المنظور الفلسفي ذاته أفضى إلى اعتماد منظور أولوية مصلحة الجماعة على الفرد، وهو جوهر الفكر الاشتراكي، المناقض بالتعريف لليبرالية.

أنصار الحرية الفردية المطلقة في الاقتصاد من الليبراليين تحولوا إلى "محافظين"، كما في بريطانيا، أو كما في حالة الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة، وهناك حالة أكثر تطرفاً هي الـLibertarianism التي تنادي بالحرية الاقتصادية وانسحاب الدولة تماماً من الاقتصاد والمجتمع إلا بصفتها دولة حارسة، أي لممارسة الأمن والدفاع والقضاء، وهناك صيغة أكثر تطرفاً من هؤلاء هي الدعوة لانسحاب الدولة حتى من الأمن والدفاع والقضاء وتسليم كل تلك الوظائف للقطاع الخاص، وهذا التيار له نفوذه وتأثيره، وهو يدعو لخصخصة السجون والشرطة والأمن إلخ... وتسليم كل تلك الوظائف للقطاع الخاص، وثمة تجارب لخصخصة السجون في الولايات المتحدة، وبالطبع فإن الشرطة أو الحراسة الخاصة، ومن ثم الجيوش الخاصة، هي جزءٌ من هذا التوجه، الذي عمته العولمة عسكرياً فيما بعد من خلال الشركات المرتزقة الخاصة، مثل شركة "بلاكووتر" الأمريكية، وشركة "سادات" التركية.

الليبرالية الاجتماعية هي تيار في الفكر الليبرالي يحاول مصالحة مفهومي الحرية الفردية والمساواة الاجتماعية، وبالتالي فإن لديه منظرين ومفكرين يجادلون بأن الحديث عن المساواة، من دون تحقيق شروطها، يحول الفكرة الديمقراطية إلى هراء، فلا معنى للحديث عن الحرية وتساوي الحقوق في ظل التهميش الاجتماعي والاقتصادي، ولهذا يرون أنه لا بد من تدخل الدولة لتحقيق تلك الشروط عبر التعليم المجاني والطبابة المجانية ودعم الفئات الأقل حظاً والأكثر تهميشاً في المجتمع وتأهيلها لكي تتمكن من ممارسة حقوقها التي ينص عليها القانون، ومن هؤلاء الحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة، والأحزاب الديمقراطية الاجتماعية في أوروبا الغربية، وهؤلاء قد يتساهلون مع تدخل الدولة في الاقتصاد لتحقيق هدف المساواة، وقد يتقبلون بدرجات متفاوتة فكرة الاقتصاد المختلط، ولكنهم ليسوا اشتراكيين، بل يعودون في النهاية إلى جذورهم الليبرالية، على عكس الاشتراكيين الذين انقلبوا على المرجعية الفردية إلى مرجعية جمعية.

الشق الكبير في الحياة السياسية في الغرب، على صعيد السياسات الاجتماعية والاقتصادية، هو بين هذين التوجهين، وهو ما يوصف خطأً باليمين واليسار في الغرب، أو في الكيان الصهيوني بين الليكود وحزب العمل سابقاً، ولهذا فإن تعبير ليبرالي في السياسة بات يُحفظ في الغرب اليوم لهذه الفئة (الساعية لمصالحة فكرة المساواة الاجتماعية مع فكرة الحرية الفردية)، أما الليبراليون المتطرفون في الاقتصاد على حساب المساواة السياسية فيعدون محافظين.

الليبراليون في السياسة في الغرب باتوا يشددون اليوم على التعددية الثقافية وحقوق الأقليات واحتقار الحس القومي وإعلاء شأن التجارة الدولية كأداة لتحقيق السلام الدولي، وهو خط الإدارة الأمريكية في ظل بيل كلينتون أو أوباما، وهؤلاء يتبنون المدرسة "النيوليبرالية"، في السياسة الدولية، أما الجمهوريون فيتبنون المدرسة "الواقعية الجديدة" في السياسة الدولية.

الخط الليبرالي الجديد ازدهر مع ازدهار فكرة العولمة، وعبور الحدود، وتجاوز القوميات، ولكن مع انتصار الصين في لعبة العولمة، ارتد الغرب إلى مدرسة "الواقعية الجديدة"، التي تركز على الأمن القومي، والتي يمثل ترامب رمزها الأبرز اليوم، ولكن هذا خارج موضوعنا هنا.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

كلاهما في النهاية يستند إلى مرجعية الفرد، التيار المحافظ، أو «الواقعي» (وكيسنجر من أبرز منظريه)، أم التيار الليبرالي الاجتماعي، الذي يحاول التخفيف من وطأة الرأسمالية وإفراطها وأزماتها الاقتصادية بشيء من تدخل الدولة في الاقتصاد، من خلال الضريبة التصاعديّة وفرض فكرة المسؤولية الاجتماعية على الشركات الكبرى وما شابه، ولكن الليبرالي مرجعيته فردية في النهاية، بمعنى أن ما يصح وما لا يصح يُقاس أولاً بمصلحة الفرد المجرد، الذي يُسمى فلسفياً «حقوق الإنسان»، أي حقوق الإنسان الفرد.

المرجعية القومية أو الاشتراكية بالمقابل هي حقوق الجماعة، حقوق الأمة، أو حقوق الطبقات الشعبية، والمرجعية الوطنية هي حق الوطن، والعبارة ليست في أن الليبراليين يرفضون بالمطلق حقوق الجماعة، ولا في أن القوميّين أو الاشتراكيّين يرفضون بالمطلق حقوق الفرد، بل في تحديد الأولويات، أي هل تأخذ حقوق الجماعة الأولوية أم حقوق الفرد في القانون والسياسة؟

وهذا هو بالضبط ما يفرق ما بين الليبرالي وغير الليبرالي اليوم، وإعطاء الأولوية للحق العام هو ما يجعل المرء قومياً أو اشتراكياً، وإعطاء الأولوية للحقوق الفردية هو ما يجعل المرء ليبرالياً.

في الولايات المتحدة مثلاً حدث أن تم تبرئة أو تخفيف الحكم على متهمين، ألقى القبض عليهم بالجرم المشهود متلبسين، والدماء تسيل على أيديهم، وفي أيديهم سلاح الجريمة، لأن الشرطي الذي ألقى القبض على المتهمين، في خضم معركة دموية معهم، سقط فيها زملاؤه قتلى وجرحى إلى جانبه، نسي أن يقرأ لهم كمتهمين حقوقهم الفردية المعروفة باسم Miranda Rights: You have the right to remain silent. Anything you say can and will be used against you in a court of law. You have the right to an attorney. If you can't afford an attorney, one will be appointed for you... إلخ.

يبقى ما سبق نقطة خلاف بين الليبراليين السياسيين/الاجتماعيين من جهة والمحافظين من جهة أخرى تعكس ذاتها في الكثير من الأفلام الأمريكية، وقد شكلت مادة لردة فعل محافظة على الليبراليين الاجتماعيين، ولكن كذلك يمكن أن تجد مثلاً أن البث التلفزيوني للبرامج المعهودة توقف لأن قطة وقعت في بئر، ليصبح الخبر العاجل هو تغطية عملية إنقاذ القطة إعلامياً، وهو ما يمكن أن يستمر ساعة أو ساعتين، لتتوج النهاية السعيدة بتصفيق الجمهور المتابع لعملية إنقاذ القطة... وهذه ليست سفاهة، بل نتيجة طبيعية للتركيز على الحق الفردي على حساب الحق العام.

أما إذا تحدثت عن قضية شعب، عن قضية فلسطين مثلاً أو السكان الأصليين للولايات المتحدة الذين أبادهم المستعمرون الأوروبيون، أو عن مليون أو مليوني عراقي قضوا بالعقوبات الأمريكية على العراق، أو عن حصار سورية اليوم، أو السطو الأمريكي على نفط شرق الفرات وغازه، فإن ذلك يصبح قضية «خلافية» شائكة ليس من الذوق بشيء طرحها في اللقاءات الاجتماعية. وتلك هي النتيجة الطبيعية للفكر الليبرالي. ولنلاحظ هنا كم من متقينا ويساريينا العرب يتبنون مرجعيات ليبرالية في الجوهر.

خلاصة الفكر الليبرالي في نهاياته المنطقية، كما لخصها الشاعر السوري أديب إسحق في القرن التاسع عشر، هي:

قتل امرئ في غابة
وقتل شعب أمن
جريمة لا تغتفر
مسألة فيها نظر

وكما صاغت الفكرة رئيس وزراء بريطانيا الأسبق مارغريت ثاتشر في مقولتها الشهيرة: There is no such thing as society. There are only individuals. أي لا يوجد شيء اسمه مجتمع. ثمة أفراد فحسب.

مشكلة طرح الفكر الليبرالي في ظروف بلدان الوطن العربي:

الليبرالية الاقتصادية في دول الجنوب والشرق عموماً، وفي الوطن العربي خصوصاً، المعروفة اختصاراً باسم «النيوليبرالية»، أي الليبرالية الجديدة، باتت تعني اليوم ترك الحبل على الغارب للشركات عابرة الحدود لكي تتغول كما تشاء، ويبيع القطاع العام لها،



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

وإعفاء الدولة من أي مسؤولية اجتماعية، وإحلال الاستيراد محل الإنتاج المحلي، والسماح للاحتكارات بأن تعصر المواطن للقطرة الأخيرة، والتخلي عن مشروع التنمية المستقلة بذريعة الاندماج في الاقتصاد العالمي، وإلقاء العبء الضريبي على المواطن من خلال زيادة ضريبة المبيعات فيما يتم تخفيض الضرائب على الأرباح والدخول المرتفعة.

ومع نشر فكر العولمة وتزايد البرامج التي تطرحها المؤسسات الدولية في الوطن العربي، لا سيما دول الطوق المحيطة بالكيان الصهيوني، انتشر في الوطن العربي خطان أحدهما يركز على الليبرالية الاقتصادية، والآخر يركز على الليبرالية السياسية، وكلاهما يكمل الآخر، تماماً كما في الغرب، وكلاهما يشترك بصفة أساسية هي استناده للمرجعية الفردية الصرف في حالة الليبرالية الاقتصادية، أو المرجعية الفردية في الحياة الاجتماعية (أي أن يعيش الفرد كما يحلو له) المخففة بدور اجتماعي للجمعيات غير الحكومية الممولة أجنبياً (بديلاً للدولة)، حتى لو ظهر أنهما مختلفان في المظهر.

المشكلة السياسية في الحالتين هي تجاوز المرجعية الجمعية، كطرف نقيض للمرجعية الفردية، سواء كانت حقوق الأمة (السيادة، القرار المستقل، التحرر) أم حقوق الطبقات الشعبية (الحق بعيش كريم، حق تأمين الحاجات الأساسية، الحق بالتحرر من الاستغلال).

المشكلة الأخرى في الطرح الليبرالي في ظروف البلدان التي لم تحقق وحدتها القومية هي أنها تربط ذلك الطرح بتجاوز الانتماء الوطني والقومي في مواجهة الدول المستقلة وحركات التحرر الوطني، وليس بتكريسه في مواجهة الإقطاع والكنيسة كما كانت عليه الحال مع الليبرالية الأولى في أوروبا الغربية، وبالتالي فإنه يصبح جزءاً من مشروع التفكير، وفي ظروف الوطن العربي، يصبح الطرح الليبرالي جزءاً من مشروع "الشرق أوسطية"، وبالتالي فإنه يصبح في الوطن العربي جزءاً من تكريس مرجعية الفرد على حساب الهوية والانتماء الوطني والقومي، أي من مشروع اقتلعه من جذوره.

لو كنا قد أنجزنا عصر النهضة والتنوير والثورة الصناعية، ولو كانت المناطق والقبائل والطوائف قد اندمجت في بوتقة دولة قومية واحدة، تقوم فيها العلاقة على ميزان بين الدولة والمواطن المنتمي بشكل تام وطنياً وقومياً، لأصبح للطرح الليبرالي سياقه المنطقي، أما قبل تحقيق مشروع النهضة والوحدة والتحرر القومي، فإن الطرح الليبرالي يصبح أداة تفكيك، وبالتحديد، أداة لتذرع التراكم المدني الذي حققناه عبر مسيرة مشاريع النهضة العربية المتحققة منذ القرن التاسع عشر إلى شذرات فردية تمارس غربتها في قواعدها الفردية، وهو جوهر أزمة المثقفين العرب المفكرين للانتماء الوطني والقومي اليوم.

الحديث عن مقياس فردي للحق والباطل والصح والخطأ في مجتمعنا العربي المعاصر الذي لم يحقق اندماجه الاجتماعي على أسس المواطنة القومية أولاً، وجعل الدولة، بالمطلق، عدواً للحقوق الفردية، يؤسس للانسلاخ عن الوطن والهوية، وعن التراث وأي مشروع جمعي بشكل عام، كما أنه يؤسس لإضعاف الحياة الحزبية والسياسة عموماً مع سعي "الأفراد" لأن يكونوا "مستقلين".

لسنا ضد الحقوق الفردية، ولا نندخل فيما يخص الفرد عندما لا يكون له بعد وطني أو قومي أو اجتماعي، ولكن ما يجري تأسيسه اليوم هو تكريس تفكيك المفكك وتجزئة الجزأ اجتماعياً، على مستوى علاقة الفرد بالمجتمع، لا على مستوى علاقة فئات من المجتمع بالدولة فحسب، مع العلم أن جماعة "الحقوق الفردية" يغوصون كثيراً في مسائل حقوق "الأقليات" الحقيقية والمخترعة.

في الخلاصة، أجهض الغرب بالعنف والتأمر كل محاولة عربية لتحقيق النهضة العربية، من مصر إلى العراق إلى سورية إلى غيرها، وبالتالي فإن التطور الطبيعي من الإقطاع للرأسمالية انقطع عندنا، فلا خيار إلا قيام قوة راعية بتحقيق المشروع النهضوي، قوة مركزية، من فوق، تماماً كما حاول محمد علي باشا أن يفعل في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكما فعل بطرس الأكبر في روسيا. وهذه القوة ليست سوى الدولة صاحبة مشروع النهضة القومية.

* هذه الورقة نسخة موسعة من مقالة "مسألة الليبرالية الحديثة في كلمة الرئيس الأسد في جامع العثمان"



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

تهافت المرجعيات: من العصر القديم حتى الليبرالية الحديثة

بشار شخاترة



رصدنا في لائحة القومي العربي خلال الشهر الأخير موقفين دينيين صدر تعليق على صفحة اللائحة حولهما، الأول صادر عن البطريرك الماروني بشار الراعي يطالب فيه بتحديد لبنان عن الصراع في المنطقة ويشير أيضاً إلى أن لبنان تتجاذبه الأطماع (الإسرائيلية) والمطامع السورية، أما الموقف الثاني فهو ليويسف القرضاوي باعتباره كبير علماء المسلمين يتهم فيه على العرب والعروبة من باب اللغة العربية بقوله لو لم ينزل القرآن باللغة العربية لما انتشرت ولما سمع بها أحد، وما قاله القرضاوي يندرج في خانة التقليل من شأن العرب بطريقة مواربة.

قد يبدو أن الموقفين لا رابطاً مباشراً بينهما وهو كذلك، لكن هذا لا يمنع من أن نسبر أغوار الوعي لدى (المرجعيات) الذي يحكم علاقة الأمة مع الدين، الدين الذي لسان حاله من الناحية الرسمية والواقعية هم هؤلاء الذين يعتلون عرش الفتوى، والدين الذي نقصده ينصرف إلى المسيحية والإسلام بسنته وشيعته باعتبارهما عقيدة الأغلبية الساحقة من العرب واللذين يمثلان فيها الجانب الروحي والإيماني للأمة، فأين يقف الدين من مسألة الهوية والانتماء؟

بالرغم من أن الإسلام والمسيحية ولدا من رحم الأرض العربية إلا أن هناك حالة من الاستلاب المرجعي لدى بعض ما يسمى مرجعيات دينية إسلامية (سنة وشيعة) ومسيحية، تعمل بشكل ممنهج على تصدير أو تجيير مشاعر المؤمنين العرب نحو مركزية أو مرجعية خارج حدود الوطن العربي .

تعتبر العهدة العمرية نموذجاً فذاً في التأكيد على مشرقية المسيحية والحفاظ على عروبتها عندما اجترح ابن الخطاب حلاً وضع الإسلام والمسيحية تحت سقف الدولة مقلداً الباب في وجه المغامرين من أصحاب الفتاوى والانحراف الفقهي، لكن تطورات الواقع وتراجع دور الدولة المركزية لحساب أمراء الإقطاع العسكري والديني استجلب معه فتاوى تنفق وانحدار تلك المرحلة التي جعلت من الفقه والفقهاء أداة لتبرير الانقلاب على العهدة العمرية بالمعنى المجازي وعلى غيرها بحيث أصبح الفقه يتسم بدور إغائي ونافٍ للآخر من غير أتباع الإقطاعات القائمة كالمماليك والسلاجقة وغيرهم، من هنا يمكن أن نلاحظ أن التباين بين عناصر الأمة بدأ بالظهور عندما غابت شمس الدولة المركزية، ومن أهم من أسس لهذا المنهج ابن تيمية، وبسبب التراجع المتسارع لدور العرب في الدولة حد الغياب التام بات التشدد عقيدة بحد ذاتها والمغالاة به ركناً جديداً من أركان الإسلام، وليس من باب الغرابة تلقف الوهابية لفكر ابن تيمية وتلقف بريطانيا لآل سعود والوهابية وللإخوان المسلمين وللتطرف الديني وصولاً إلى نسخ "النصرة" و"دا عش"، إضافة إلى النتائج الكارثية للسياسة التي اتبعتها الاحتلال العثماني والتي فتحت الأبواب للتدخلات الغربية بالمسيحيين العرب بحجة الدفاع عنهم والمحاولات المحمومة لتجبيرهم، علماً أن المسيحيين العرب لم يكونوا لقمة سائغة للاستعمار، وكانوا جزءاً عضويًا من النضال ضده، لكن ذلك لا يمنع أن هناك من سقط وأن هناك مرجعيات دينية ربطت مصيرها بالغرب كما فعلت الكثير من المرجعيات الإسلامية.

برز في نهاية السبعينيات ومطلع الثمانينيات من القرن الماضي النموذج الأفغاني، مع صعود نجم الراديكالية الإسلامية وتمدد الفكر (الجهادي) بحيث أصبح اللبس الأفغاني والاتحاق بالحرب الأفغانية الصورة النمطية للمسلمين الشباب، وهو نمط متطرف أنتج فكراً أشد تطرفاً من ذلك الذي أسسه ابن تيمية وابن عبد الوهاب وسيد قطب،



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

فكرٌ تطور بين جبال تورا بورا وفي بيئة غير طبيعية وغير منطقية ولا تتفق مع الواقع لا الإسلامي ولا العربي ولا الإنساني، هذا الفكر الذي كلما تدرج للأمام ازداد انغلاقاً وتطرفاً.

برزت بالتوازي مع هذا النموذج حالة شاذة من الاستلاب هو استلاب الأولويات لدى (الفقه الإسلامي)، فعندما نجد أن عشرات الآلاف من الشباب العرب التحقوا بالجبهة الأفغانية للقتال ضد الاتحاد السوفيتي السابق، وهناك من خرج من فلسطين نفسها للجهاد في أفغانستان، وفلسطين تزرع تحت الاحتلال الصهيوني عندها يمكن فهم مقصدنا بتعبير استلاب في الأولويات، وهو استلاب مرده استلاب الوعي وانحراف المقاصد الشرعية كما يسميها (علماء الدين) لأن العقائد الدينية التي ترسخت عبر قرون طويلة كانت كلها متفقة على مرجعية مستلبة وأسيرة لعهود طويلة من السلطة المهيمنة وهي لم تكن سلطة عربية، وبالتالي لم يؤسس فقه ديني ولم يترسخ في وعي العرب عروبة الإسلام بمعنى انسجام الوعاء البشري وهي الأمة العربية مع دينها، ومثل هذه الانطباعات انغرست في وجدان المسيحية العربية أيضاً بسبب الانقلاب على العهدة العمرية وإخراج المسيحية من سياق التنبؤ المؤسسي للدولة عندما بدأ فقه الملل وديار الكفر وديار الإسلام يغزو الأدبيات الدينية الإسلامية.

من المهم أن نلقي الضوء على الحراك الفكري والسياسي العربي انطلاقاً من السقيفة التي أسست مرجعية سياسية للحكم بعد وفاة النبي، بالرغم من أن الإسلام وقتها كان المكون العربي هو العنصر المهيمن فيه بشكل مطلق إلا أن هذا لم يمنع من ترسيخ مرجعية العرب في الحكم وتفردهم به دون غيرهم، نعم لم يكتب هذا ولم يقله أحد بهذا المعنى الواضح لكن التلميح به كان أوضح من التصريح، فمجرد استئثار قريش بالخلافة دون الأنصار درج على قاعدة: في قريش الإمارة وفي الأنصار الوزارة كما قيل، لكن الواقع كان يقول غير ذلك فالسلطة كلها بيد قريش ليس فقط لأن النبي منهم ولكن لمكانة قريش بين العرب ولمكانة البيت الحرام في مكة في وجدان العرب والتي أتى الإسلام ورسخها بالنسبة لحرمة الكعبة وجعلها قبلة وأقر الحج إليها، هذه كانت رسالة في صميم عقيدة كل من أراد الدخول في الإسلام بمكانة العرب والعربية في منظومة الدين، فقريش هي التي تجعل من بقاء السلطة في يد العرب مبررة ومفهومة، أولاً لانتماء النبي لها، وثانياً لمكانتها عند العرب أنفسهم قبل الإسلام لوجود البيت فيها، هذا الفهم بقي مرجعياً وقاسماً مشتركاً حتى مع اندلاع الصراع بين علي ومعاوية، وليس أدل على ذلك من رد معاوية العنيف على هرقل قيصر الروم عندما عرض عليه مساعدته ضد علي بن أبي طالب، فلم يكن هناك من يتخيل أن تخرج السلطة من يد العرب، رغم حاجة طرفي الصراع لسيوف الموالتي إلا أن أحداً منهما لم يعرض أي مقابل سياسي لاصطفاف هؤلاء إلى جانبه.

وينطبق ذات القول على الخوارج الذين كان يمكن أن يكونوا الحزب الجمهوري العربي في ظل الدولة لمطالبتهم بعدم اقتصار الخلافة على قريش، لكنهم كانوا مع بقاء الخلافة شأناً عربياً، ولولا أنهم موتورون بسبب انتماء الغالبية منهم إلى قبائل الردة التي سحقها الخليفة أبو بكر وسبي نسائهم وأولادهم وتفرقهم بين المنتصرين، وبسبب نمط حياة هؤلاء التي تتسم بعدم الاستقرار والغزو لكانت دعوتهم يمكن أن تنتج فكراً متنوراً، لكنها بقيت حبيسة الضغينة من قريش وانغلاق الفكر من فقر بيئتهم الفكرية، ولهذا كانت آراؤهم تتسم بالتشدد والتطرف في تأويل الدين نظراً لظروفهم الأنف ذكرها ونظراً لضعف مرتبتهم بين المتصارعين من قريش، البيت الأموي والبيت الهاشمي، أملاً منهم بحجز مكان لهم في حلبة الصراع المنفتح.

بقاء السلطة عربية والحفاظ عليها كذلك كان في رأي عمر بن الخطاب عقيدة، فهو من أعاد السبايا من نساء المرتدين إلى قبائلهم ومعهم أولادهم ومنع السبي بين العرب ومنع استرقاقهم حفاظاً على بياضة الدولة وعلى عصبيتها، وخشية تغلب العجم على العرب، وهو ما دعاه إلى منع كثير من الصحابة من مغادرة المدينة المنورة وحتى لو كان للجهاد، حيث كانت الفتوحات قد أوجدت أراضي كثيرة من دون مالك، وهو ما دعاه لعدم توزيع أرض السواد على المقاتلين وأصر على بقائها ملكية عامة لجميع المسلمين وقيماً لهم يعود بخراجه على الدولة نظراً لطبيعة نظام الضرائب المتبع حينها، وقد كان القصد أيضاً وقف النزيف من الجزيرة العربية طمعاً في تلك الأرض الخصبة، لأنه رأى أن الجزيرة العربية هي مهد الدولة ولا يجوز أن تكون مكشوفة إذا تم تفرغها من أهلها، وعزز من سياسته تلك التي تقوم على أن الإسلام دين لجميع البشر لكن يبقى العرب هم مادته، ولهذا كان يقيد الزواج من سبايا الحروب التي يجلبها المقاتلون معهم، حفاظاً على مركزية العرب في الدولة.

حيوية واندفاع الدولة العربية في العصر الأموي والعباسي الأول لم تتركها مكاناً للاستلاب المرجعي، لا سيما أن الدولة العربية تعاملت مع العرب المسيحيين كشركاء، أو بالكثير من التسامح، بصرف النظر عما إذا كان الحكم أمياً أو



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد



عباسياً أو حتى علوياً شيعياً، وحتى المدارس الفكرية التي تبناها هؤلاء في فقهم كانت تصب في هذا المنهل، حتى لو تبني هؤلاء جميعاً منهجاً قام على غلبة النقل على اجتهاد العقل، فحيوية الدولة منعت بروز الأمراض الطفيلية التي تغزو الدول والمجتمعات وتهدم استقرارها، لكنها لم تحصنها إلى يومٍ تترأخي فيه هيمنة الدولة أو يغيب عن صدارتها العرب، لينجرف البنيان العقدي القائم على تأويل النصوص والاجتهاد إلى مهاوٍ سحيقةٍ ومنتشجةٍ تتسم بالانغلاق لعدم ارتكازها على أساس منطقي وعقلي.

يواجه الواقع العربي اليوم حالةً من الجمود تشكلت أساساته مبكراً على من صاغوا عقيدة الأمة بطريقة انحرفت عن العقل، فلم تعد البنية العقائدية قادرةً على تحريك الجمود العام في واقع الأمة، ومع إمساك المؤسسة الدينية بعقول الناس لا مجال للقول بوجود حل لدى هؤلاء لمشاكل واقعنا العربي المزري، والمؤسسة الدينية إن جاز التعبير، والتي برأينا أنها تضم كل المشتغلين بهذا الحقل من أئمة المساجد إلى الواعظين إلى المفتين وقضاة الشرع من الرسميين، وصولاً إلى جماعات الإسلام السياسي بكافة أطيافها، هؤلاء يشكلون بنياناً عقائدياً

واحداً بالرغم من التباين الحاد فيما بينهم إلا أنهم يعودون إلى مرجعيات واحدة في الاستنباط والتأويل في المحصلة ليس القرآن الكريم هو النقطة المرجعية فيها، فهناك مرجعيات أخرى معه من فقه السابقين إلى الأحاديث المروية والصحاح تشكل شريكاً مهماً تتغلب على القرآن، ليس من باب نبذ الإرث نقول هذا ولكن من باب أن محتوى الدين قد اعتدّي عليه على مر القرون تلبيةً لرغباتٍ سياسيةٍ ومصالحيةٍ كانت على حساب الشريعة الأهم لهذا الدين وهم العرب حيث تم السطو على وعي الإنسان العربي لصالح هيمنة المؤسسة الدينية التي ترافق هذا الإنسان من مولده حتى وفاته وتوجه مسلكه وتصادر هويته العربية لحساب هوية دينية لا تعترف بها الكثير من الأمم الإسلامية في حال تمت مقاربة هوية الدين مع هوية تلك الأمم القومية بل يتم توظيف الدين لخدمة الهوية القومية لتلك الأمم.

بالتأكيد إن الموقع الذي تتمتع به المؤسسة الدينية جديرٌ بالدفاع عنه، ليس دفاعاً عن الدين بقدر ما هو دفاعٌ عن مواقع ومصالح تلك المؤسسة، ولعله من أخطر ما تضطلع به المؤسسة الدينية بما فيها "دا عش" و"النصرة" ومؤسسات الفتوى الرسمية العربية إغلاق باب العقل، وتبني التفسير الغيبي للواقع العربي مع ترسيخ حالة الاستلاب وغربة الوعي بالأمة العربية لحساب الانتماء (الإسلامي) ما فوق القومي، وهي حالة خلقت نفوراً نحو العروبة وضعفتها خصماً للإسلام، ومن هنا حافظت تلك المؤسسة على بقائها، وهذا لسان حال الكثير من المؤسسات الدينية عبر التاريخ من كهنة أمون إلى الكنيسة وحتى كهنة النار الفارسيين الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الفتح العربي الإسلامي لجمع الضرائب وتبويبها على حساب رعاياهم السابقين حفاظاً على مصالحهم ونفوذهم، وهذا يشجعنا على وصف المؤسسات الدينية بحق بأنها طبقة سياسية تتسم بخصائص مشتركة فكرياً وتمتلك بنية اقتصادية ومنظومة من الضوابط وتراتبية في علاقاتها ببعضها وتسخر الفتوى والترهيب والترغيب والإخراج من حظيرة الدين في بسط نفوذها.

المرجعيات الدينية العربية وقفت في الصف الغربي إبان الصراع بين الشرق والغرب في القرن الماضي، وتلك المرحلة التي اتسمت بالصراع الأيديولوجي أعطت زحماً لحملة لواء الدين وللمؤسسة الدينية في مواجهة ما كان يطلق عليه الإلحاد الشيوعي الكافر، وقد مارست الأيديولوجيا الإسلامية هيمنتها في عموم العالم الإسلامي الشيعي والسني بقدر أو بأخر، لكنه كان دوراً مهماً في ملء الفراغ الذي كانت تعجز الرأسمالية الليبرالية عن سده لدى عموم المسلمين والعرب أولهم، بحيث أصبحت المؤسسة الدينية وفكرها ضمن نطاق الهيمنة الرأسمالية وجرماً يدور في فلكها، وفي الوقت الذي كانت قاعدة الرأسمالية تتسع من حيث الغنى والتقدم والتطور التقني والفكري، كانت قاعدة العالم الإسلامي تتسع للفكر القطبي ولمزيد من الانغلاق وأصبحت كتب الحديث والتفسير وكتب تفسير الأحلام والعبادات والسنن إضافة إلى أسطرة الكاسيت التي غزت الأسواق العربية هي الإنتاج الثقافي والفكري للعالم الإسلامي عموماً والعربي على وجه الخصوص، وانطلق سباق التسخيف لكل شيء على لسان مهرجين تم وصفهم بأنهم شيوخ الإسلام، حتى بات الدين عدواً لكل شيء بنظر المجتمع، وقد تبنت السعودية تمويل هذا (الإبداع الفكري).



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

سرعة تطور المنظومة الرأسمالية وانتقالها إلى مرحلة الليبرالية الجديدة التي توحشت خلالها الرأسمالية بشكل أشد ضراوة من مراحلها السابقة، حيث عولمة كل شيء ورسملة وتسليع كل شيء، هذا التطور خلق ضحايا على كل الضفاف بما فيها ضفاف البلدان الرأسمالية ذاتها، وإن بقدر أقل من العالم الثالث، وهنا خرجت الأيديولوجيا من الحلية وذلك بفعل عاملين، الأول سقوط الاتحاد السوفيتي والثاني تخلي الرأسمالية عن هويتها القومية التي رافقتها منذ بدأت بتصفية الإقطاع ونفوذ الكنيسة فاستخدمت القومية في ذلك، ومع زيادة جشعها كان لا بد من التخلي عن الهوية القومية طمعاً بمزيد من الأرباح، فبدأت تنمو على هامش هذا التطور النزعات اليمينية والتطرف نظراً للإنهاك الذي لحق بالبشر وعجزهم عن مواجهة دفع الثمن لتطور الرأسمالية نحو العولمة.

الحالة العربية وجدت نفسها أيضاً أمام استحقاقات عولمة الاقتصاد والفكر، لتجد المؤسسة الدينية نفسها عاجزة عن إيجاد الحلول وفشل خطابها طيلة عقود من التوظيف في محاربة الشيوعية والفكر القومي العربي، لكن الفشل والبطالة التي وجدت المؤسسة الدينية نفسها فيه نقلها إلى مرحلة جديدة هي الأخرى مرحلة الإغراق في التطرف والتشدد، وهذا مفسر منطقياً فحماية السلطة الدينية من الانهيار تقتضي إهَاء الرعية بالأوامر والنواهي المتشددة بحيث تبقوهم في وضع المقصرين مهما فعلوا، ومن ناحية أخرى إغراقهم في حروب دينية مفتعلة تجعل الأجواء دائماً في حالة استفار، وهذا هو الهروب إلى الأمام، فتنشغل الرعية بحروب وجدالٍ وتتسابق فيمن أكثرها التزاماً، كما رافق هذه المرحلة طغيان الحالة الطقوسية على حساب الحالة الإيمانية والاهتمام بالزخرفة في المساجد مقابل إهمال المدارس ودور العلم، وهي حالة تشابه تماماً حالة الخوارج في تشددهم وذلك لضعف موقفهم قياساً بخصومهم.

إن حالة الاستلاب التي تعمها المرجعيات الدينية لصالح منظومة إسلامية غير عربية في إيران وتركيا مثلاً (أو الفاتيكان) أو ما تتبناه المؤسسة الدينية الرسمية العربية لجهة القول بالأمة الإسلامية، جميعهم يخدم هدف بقاء الحال على ما هو عليه: أمة عربية ممزقة ومستلبة وإكليروس ديني يقف على رأس الهرم يعزز مواقعها هنا وهناك بتجبير عجزه عن اجترار الحلول أو خشية المنافسين من خلال تجبير الأمة بأسرها للغير خارج حدود الوطن، بما يجعل الآمال العربية لا شواطئ لها وبداياتها لا تنتهي والمستحدث في أساليب بعض المرجعيات تسعير الصراع الطائفي بعد أن هداً قروناً، هكذا تضمن الهيمنة على الأمة .

بقي أن نقول إن للدين ضرورةً حياتية وتربوية وأخلاقية وروحانية، وإنما لا نقصد أن نخرجه من موقعه في حياة المجتمع العربي، لكن ما نصبو إليه هو تنقيته من الشوائب، وعقلنة التأويل وربطه بالقرآن لا بالفقه الذي تجاوز العصر أغلبه، وتعريب الإسلام من جديد كما جاء وكما كان ليصبح محفزاً للنهوض والتطور وليصبح جزءاً من الحل لا جزءاً من المشكلة، وحتى نوقف مثل هذا السجال المفتعل والدائر حول صراع العروبة مع الإسلام.

العرب والمشروع الطوراني-العثماني الجديد: بين الوضع القائم والأفق الاستراتيجي

إبراهيم حرشاي

أتاح تراجع منظومة الأحادية القطبية على المستوى الدولي الفرصة لأمم عديدة أن تبسط نفوذها على مناطق تعتبرها مجالاً حيويّاً لها على الصعيد الجيو-اقتصادي أو تعتبرها أراضي مسلوبة من منظور قومي. فقد باتت تشكل هذه المناطق الحيوية موطئ قدم للتوسع القومي والاستراتيجي لتلك الدول، وتمثل حالات الضم التي حصلت بشبه جزيرة القرم ومرتفعات قره باغ ومحاولات الصين السيطرة على عدد من الجزر ببحر الصين الجنوبي مجموعة نماذج أنية للتحويلات التي تجري من قبيل هذا النمط. ويستدعي هذا الوضع التفكير في خيارات الأمة العربية ضمن هذا السياق المتحول والمهدد لوجودها وهويتها، والتفكير في اقتناص الفرص التي تقدمها الخريطة السياسية العالمية عن طريق الالتفات إلى الخيارات المتاحة لمد جسور مع الجيوب والمكونات العربية المحتلة المتواجدة داخل دول المحيط الإقليمي أو داخل دول تقع خارج المجال الحيوي العربي المباشر، علماً أن الدول المجاورة، وفي مقدمتها تركيا، تستثمر بخطوات ثابتة واستراتيجية مدروسة الورقة الوحيدة التوسعية (irredentism) داخل النسيج الاجتماعي والسياسي العربي، إذ تتوغل عن طريق مشروعها الطوراني الرامي لاستقطاب الأقليات التركية بالوطن العربي وتوظيفها عبر الحركات الإسلامية بغطاء عثمانى-جديد. وتتجسد تلك المقاربة للسياسية التركية في طبيعة علاقة التبعية لنخبة



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد



الكرالية المتحكمة بزمam الأمور في غرب ليبيا، وهي المقاربة التي تتطابق مع إدارة تركيا للمجموعات المسلحة عبر عناصر تركمانية في الشمال السوري المحتل.

وما يتعين التنبه إليه في هذا السياق هو أن الرغبة التركية للتمدد ليست وليدة سنوات قليلة مضت، أي بمعنى أدق، لم تبدأ تلك النزعة مع تولي حزب العدالة والتنمية السلطة، بل هي رغبة قومية تركية توسعية ترجع إلى فترة ظهور المشروع الطوراني إبان الحقبة الأخيرة للإمبراطورية العثمانية، والذي عبرت عنه نخبة من المفكرين الأتراك وقتذاك كإسماعيل غسبرينسكي ويوسف أقجورا وضياء كوك ألب. وبالنظر إلى الفضاء التركي في الفترة المعاصرة، لا سيما بعد الحرب الباردة، يلاحظ اندفاع المسعى التركي التوسعي نحو اتخاذ خطوات تعزز الارتباطات القومية بين الشعوب التركية، ويعتبر تأسيس "المنظمة الدولية للثقافة التركية" (Turksoy) أول خطوة ملموسة في هذا الاتجاه كنتيجة لمبادرات الرئيس التركي الأسبق تورغوت أوزال الذي دعا للانفتاح على دول آسيا الوسطى على أسس قومية طورانية في تلك المرحلة. ويعود تاريخ هذه المنظمة إلى لقاءات باكو وإسطنبول سنة 1992، حيث أعلن وزراء الثقافة في كل من أذربيجان وكازاخستان وقيرغيزستان وأوزبكستان وتركيا وتركمستان ضرورة إقامة إطار ثقافي مشترك للشعوب التركية، قبل ظهوره إلى العلن في مدينة الماطاي الكزخية سنة 1993. وقد أصبحت تلك المنظمة فيما بعد ركناً أساسياً لمشروع جيوسياسي وقومي ضخم يتجسد في "مجلس تعاون الدول الناطقة باللغة التركية" الذي تأسس سنة 2009 ليجمع تحت مظلته كلاً من أذربيجان وتركيا وكازخستان وقيرغيزستان. وكان الرئيس الكزخي الأسبق المعروف بتوجهه الطوراني نور سلطان نزارباييف من أهم الداعين لتشكيل المجلس الموحد للدول الناطقة بالتركية، وقد راح هذا المجلس يتمدد إلى دول شرق ووسط أوروبية مثل هنغاريا وأوكرانيا بناء على روابط ثقافية وإثنية.

وبالرغم من عدم قدرة بعض الدول العربية كسورية والعراق على صد التوسع التركي داخل محيطها المباشر وتواجدها بموقع دفاعي نتيجة للاحتلال الأمريكي والسياسات العدوانية الغربية المتواصلة، إلا أن ذلك لا يمنع من التفكير في مبادرات بمنطق "الهجوم خير وسيلة للدفاع"، مرادها بلورة رؤى وسياسات إزاء التكتلات العربية داخل الفضاء التركي الواسع وغيرها من الفضاءات المهددة لاستقرار الأقطار العربية ووحدتها بحسب القدرة والمصلحة الراهنة.

وإذا نظرنا بعدسة عربية إلى الفضاء التركي الممتد من شرق أوروبا إلى شمال غرب الصين، سنجد مثلاً أن المكون العربي أصبح في الجمهورية التركية المكون الإثني الثالث بعد العنصر التركي والكردي، وهو الأمر الذي يتيح للدول العربية المهددة بالأطماع التركية الفرصة للتقرب والاستثمار في هذه الورقة السياسية بما يفسح المجال لإثارة قضايا تخص مصلحة عرب تركيا، كقضايا سياسة التتريك وطمس الهوية العربية، وصولاً إلى ملف احتلال تركيا لأراض سورية أو تابعة للجمهورية العربية السورية. ومن بين القضايا التي من الممكن تسليط الضوء عليها، قضية العرب الموارنة الذين أصبحوا أقلية مهددة بالانقراض في "جمهورية شمال قبرص التركية" بقرية كورماكتي، إذ انتشر معظم أفراد تلك المجموعة العربية في عموم جزيرة قبرص بعد الغزو التركي سنة 1974. ويضاف إلى جانب مسألة الأقلية العربية في قبرص الأقليات العربية في وسط آسيا، فمن المعروف تواجد أقلية عربية في قشقا داريا وبخارى الأوزبكستانيين، وترجع أصول هذه الأقلية بحسب بعض الروايات إلى عهد والي خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي.

وبرغم سياسة الانصهار الثقافي، لم تختف اللهجات العربية من منطقة الأناضول بعد قدوم السلاجقة وقيام الإمبراطورية العثمانية إذ ظلت اللغة العربية الفصحى لغة الدين والثقافة، في حين تحول متكلمو اللهجات العربية بمرور الوقت للتركية أو الكرديّة. كما احتفظت بعض التجمعات في وسط الأناضول بلهجاتها العربية كلغة تواصل، ويبلغ عدد المتحدثين بالعربية في الأناضول



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

140 ألف شخص بحسب المستشرق الألماني المتخصص باللغات العربية بالأناضول أوتو ياسترو (Otto Jastrow)، يتحدث معظمهم، بجوار العربية، اللغتين الكردية والتركية. أما بالنسبة للبعد الجغرافي، فتنقسم اللهجات العربية في الأناضول لخمس مجموعات: مجموعة ديار بكر، ومجموعة مردين، ومجموعة سيرت، ومجموعة كوزلوك، ومجموعة ساسون. وقد أصبحت لهجات الأناضول العربية مع مرور الوقت تتميز بالعدد المتزايد من الكلمات المقترضة من التركية والكردية نتيجة للاحتكاك الدائم والمتواصل مع المتحدثين بالتركية والكردية، مع التأكيد على أن الكثير من تلك الكلمات المقترضة من أصل عربي دخلت على التركية ثم عادت للهجات الأناضول العربية.

أما من الناحية الديمغرافية، وبحسب إحصائيات جامعة أك ديبيز التركية، فقد بلغ عدد العرب حوالي 8309540 مواطن عربي-تركي، أي 11,12 بالمئة من مجموع عدد سكان تركيا، علماً أن أعلى نسبة لعرب تركيا متواجدة في لواء الإسكندرون المحتل تليها أورفا ثم إسطنبول.

وبالنظر الى سياسة التتريك الحديثة المغلفة بالعثمانية الجديدة والطورانية، يلاحظ المتتبع الترويج المكثف في الإعلام العربي الموالي لتركيا والإعلام التركي الناطق بالعربية (TRT ARABI نموذجاً) لظاهرة المعاهد والجامعات التركية التي باتت تدرّس اللغة العربية، إضافة إلى توظيف تلك المنصات الإعلامية للترويج للسياسة التركية، زيادةً على دفع المواطن العربي لاستهلاك المنتجات التركية التي اجتاحت أسواقه بمستويات لا تعد ولا تحصى. ونتيجة لهذا، يُترك الانطباع لدى فئة ساذجة أو مؤدلجة من المتقنين العرب بأن ما يحصل هو تقرب تركي للوطن العربي ولقضاياها، لا سيما أن تلك الحملات البروباغندية محفوفة بخطاب شعبي بطله الرئيس التركي أردوغان.

ولعل ما يكشف زيف هذه السياسة هي الحرب الشعواء التي تتعرض لها اللغة العربية بالفناء العام التركي، لاسيما بوجود تخوفات متجذرة لدى الأتراك من قوة تأثير الحضارة العربية-الإسلامية ودورها في تكوين الهوية القومية التركية رغم السيطرة السياسية للأتراك على معظم الوطن العربي لقرون. وتكفي الإشارة في هذا الصدد إلى ما تعرضت له المحلات العربية بتركيا من عنف أمني بإزالة اللافتات المكتوبة باللغة العربية على واجهاتها تطبيقاً للقانون التركي الذي يمنع رفع لافتات مكتوبة بغير التركية. كما لا تقتصر العنصرية في المجال اللغوي والثقافي فحسب، بل أصبحت مشاهد الاعتداءات الجسدية على العرب القاطنين بتركيا ظاهرة مألوفة، خصوصاً مع قدوم اللاجئين السوريين خلال السنوات الماضية إثر فتح حكومة أردوغان أبواب التهجير على مصراعيها في بداية العدوان على سورية، ضمن مخطط تركي لتتريك المنطقة، واستغلال الولاء السياسي للاجئين في الاستحقاقات الانتخابية والزج بهم كقوة رديفة إلى ميادين قتال خارج تركيا.

يبقى المشروع القومي التركي التوسعي مصدر تهديد للوطن العربي كباقي المشاريع القومية الصديقة أو المعادية في ظل غياب مشروع عربي يقابله، أو في ظل غياب استراتيجية لتحالفات متينة تهدف لردعه إلى جانب أمم يشكل النهوض الجيو-سياسي التركي تحدياً لها وخطراً عليها. ومن المتوقع أن تكون العقود المقبلة حاسمة في إفراز القوى المسيطرة على الفضاء الأوراسي التي ستشهد بما لا شك فيه تنافساً حاداً بين الأمم الآسيوية العملاقة، ومن بينها التركية، تحت سقف "مجلس التعاون للدول الناطقة بالتركية"، والذي بات يشكل تهديداً حقيقياً للوحدة الترابية الروسية والإيرانية خاصة بعد حسم معركة نغورني قره باغ بتحالف ميداني أذري-تركي، علماً أن لدى روسيا وإيران إثنين تركية قد يحركها التحالف التركي لمصلحته مستقبلاً تيمناً بما يحصل من تحريك لأقلية الأيغور في الصين. لذلك تصبح ورقة الجيوب العربية في الفضاء التركي-الآسيوي، إلى جانب ورقة إحياء قضية الأراضي العربية السورية المحتلة تركيا، من بين أوراق الضغط التي لا بد من تفعيلها سياسياً.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

هل جاءت التوراة من جزيرة العرب؟

ناجي علوش



(مراجعة ناجي علوش لكتاب د. كمال الصليبي المنشورة في مجلة "الوحدة" الشهرية، العدد 24 - أيلول/ سبتمبر 1986، ونعيد نشرها اليوم بمناسبة تغلغل التطبيع في شبه جزيرة العرب، لكيلا يكون لمثل ذلك التطبيع "أساساً تورائياً"، أيضاً، بحسب مزاعم البعض)

إن الدكتور صليبي يطرح هذه القضية في كتابه "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، وي طرحها مؤكداً على أن التوراة جاءت من هناك، لا باعتبار أن النصوص انتقلت أو اقتبست، بل باعتبار أن المكان الذي تحدثت عنه التوراة هو منطقة عسير في الجزيرة العربية (!) لا فلسطين.

هنا يطرح علينا الدكتور صليبي إشكالية لم تطرح من ألفي سنة، أو يزيد، ويصطدم طرح هذه الإشكالية بدراسات وأبحاث عديدة، كتبت في تواريخ مختلفة، وبقناعات رسخت مع القرون، بأن التوراة كتبت عن فلسطين، وإن لم تكتب كلها في فلسطين.

فعلام استند الدكتور صليبي في طرحه؟ وماذا يعني تأكيد أطروحات الدكتور صليبي؟

ولكن قبل الإجابة على هذين السؤالين، نود أن نؤكد على التالي:

أولاً: أن الكتاب جهدٌ جاد، اقتضى دراسات ومراجعات تستحق الاحترام. فالكتاب لم يُعد دراسة التوراة فحسب، ولم يدقق في ترجمتها فقط، بل درس جغرافية شبه جزيرة العرب دراسة جادة، وقام بزيارة دراسية للأماكن التي اعتقد أنها المكان الجغرافي للتوراة.

ثانياً: أن الكتاب مسعى علمي لتخطي المؤلف، ولإعادة النظر في تاريخ التوراة وتاريخنا عموماً. وهي خطوة جادة تستحق التقدير، لأن كثيراً من مؤرخي العرب عودونا أن ينقلوا من دون أن يناقشوا ويحللوا، وأن يسلموا بالمعلومات المتداولة من دون تمحيص. أما هذا الكتاب فيخرج عن المؤلف، لا ادعاءً ولا عفواً، بل بمحاولة دراسية جادة. اتسمت بالجرأة، إلى جانب الجدية.

ثالثاً: أن الكاتب لم يغفل، في مقدمة الطبعة العربية، مناقشة الجانب السياسي من الموضوع، "لأن يهود اليهود ليسوا استمراراً تاريخياً لبني إسرائيل، ليكون لهم شيء يُسمى حقوق بني إسرائيل، وذلك سواءً كانت أرض بني إسرائيل أصلاً في فلسطين، أم في غير فلسطين" (ص. 13).

وسنحاول الآن، وبعد هذه المقدمة، الإجابة على السؤالين السالفين الذكر.

يقول المؤلف في أول مقدمة الطبعة العربية: "هذا الكتاب بحثٌ في جغرافيا التوراة على أسس جديدة. وخلصته أن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديداً في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن. وبالتالي، فإن بني إسرائيل من شعوب العرب البائدة، أي من الشعوب الجاهلية الأولى. وقد نشأت الديانة اليهودية بين ظهرانهم، ثم أنتشرت من موطنها الأصلي، ومنذ وقت مبكر، إلى العراق والشام ومصر، وغيرها من بلاد العالم القديم" (ص. 11).



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

ويضيف المؤلف بأن "استعراض الدراسات والأبحاث الضخمة التي أنتجها علماء الآثار والباحثون التوراتيون، خلال السنوات المائة الأخيرة، يلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة، وهو أمرٌ حريٌّ بالمتابعة. ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضةً للنقاش الحاد، فإن جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات".

ويضيف المؤلف أن "الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مُسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار... لكن لن يُعثر في أي مكانٍ كان على أثرٍ واحد يمكنه أن يوصف جيداً على أنه يتعلق بالتاريخ التوراتي" (ص. 50).

ولقد قرر الدكتور صليبي أن يقلب المؤلف، "وبدلاً من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمسلمة، ومناقشة صحتها كتاريخ"، يقول د. صليبي: "سأخذ تاريخيتها كمسلمة وأناقش جغرافيتها" (ص. 53).

فعلام استند د. صليبي في هذا كله؟ لقد استند، كما يقول، على: "أن الأثرية الساحقة من أسماء الأماكن التوراتية، ما زالت موجودة إلى اليوم، بشكلٍ أو بآخر، في غرب الجزيرة العربية، وفي ذلك ما يثبت صحتها" (ص. 16).

ويضيف الدكتور صليبي: "من بين أسماء الأماكن الـ130 الواردة في لوائح عزرا ونحميا والمحددة بقرب غرب شبه الجزيرة العربية الواردة أعلاه، هناك أماكن قليلة قد تبقى غير مؤكدة. وبالمقابل، ليس هناك إلا قلة ضئيلة جداً من هذه الأسماء نفسها، حُددت بأماكن موجودة في فلسطين. وربما كانت هذه الأسماء أربعة فقط، وهي بيت لحم ولد نبو وأريحا" (ص 174).

ويقدم الدكتور صليبي، استناداً إلى ذلك، مقارنات بالأسماء، ويجد تماثلاً في حالات كثيرة، وتشابهاً في حالات أخرى، ويلجأ في بعض الأحيان إلى مقارنات تعتمد على قبول فكرة تحريف الكلمات. ويشير د. صليبي إلى أن ثلاثة آلاف سنة مرت، شهدت تغييرات لغوية وتحولات في اللهجات المحلية، "لهذا، فلا عجب أن الأسماء التوراتية شهدت بعض التحريف خلال ذلك، بل أن المدهش فعلاً، هو أن الأسماء قد بقيت، في أكثرها قابلاً للتمييز في زيارتها العربي الراهن" (ص. 61).

ولكن هل يكفي أن نعتمد الأسماء دليلاً على تحديد الجغرافيا التاريخية؟

إن الوطن العربي مليءٌ بالأسماء المتماثلة، أو المتقاربة. وهذا ناتجٌ عن كون سكان الوطن العربي شعباً واحداً. وقد اعتادوا أن يسموا أماكن سكنهم الجديدة بالأسماء القديمة، ولذلك، يقول د. صليبي، "لا يستبعد أن يكون عددٌ من الأماكن في المنطقتين على السواء، قد سُمي أصلاً بالأسماء نفسها، وخصوصاً حيث كانت الأسماء تدل على مظاهر طوبوغرافية أو مائية أو حياتية بيئية معينة، أو كانت تتعلق بعبادة الإله نفسه. وفي الثقافة التقليدية، كما في اللغة، لم تكن الشام والجزيرة العربية متباعدين في أي زمنٍ من الأزمنة" (ص. 36).

وما دام الأمر كذلك، فلماذا يجزم د. صليبي بأن جغرافية التوراة في جزيرة العرب؟ وهل درس أسماء الأماكن في فلسطين، دراسته الأماكن في الجزيرة، ليتأكد من عدم وجود أسماء كثيرة تتماثل أو تتشابه مع الأسماء الواردة في التوراة؟

إن قراءة قاموس الكتاب المقدس (منشورات مكتبة المشعل في بيروت - الطبعة السادسة 1981) تدل على أن هناك كثيراً من الأسماء التوراتية التي ما تزال موجودة في فلسطين.

ولقد زادت من قناعتنا قراءة قاموس الكتاب المقدس، وكتاب الدكتور صليبي، بأن وطننا ما يزال بحاجة إلى مسح جغرافي وتاريخي، لأننا ما زلنا لا نملك المعلومات الكافية في هذا المجال. ويكفي أن نشير إلى أن قاموس الكتاب المقدس عرّف "حردة" بالتالي: "اسمٌ عبري، ربما كان معناه برد" (1)، أو قرية جاء منها ناباط أبو يربعام، وربما جاء منها يربعام نفسه (1 ملوك 11: 26)، وربما كانت هي "دير غسانة بالقرب من عين حردة، على مسافة 15 ميلاً جنوبي غرب شكيم" (قاموس الكتاب المقدس، ص. 541).



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

إلا أن قاموس الكتاب المقدس انتهى إلى أن هناك قرية اسمها حرده في فلسطين إلى الشمال من رام الله، وأن هذه القرية أقرب إلى المكان المقصود، وما يزال اسمها حرده حتى الآن. ويذكر الأستاذ قسطنطين خمار اسم حرده على أنها قرب نابلس (أسماء المدن والمواقع والمعالم المعروفة في فلسطين حتى 1948 – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص. 145). وذكرها الأستاذ مصطفى مراد الدباغ في قرى رام الله باسم سُردا (بلادنا فلسطين – الجزء الأول: القسم الأول، دار الطليعة، ص. 244).

هذا وحرده قرية تقع على الطريق العام بين رام الله وبيزيت، على بعد أربعة كيلومترات من رام الله شمالاً (وطريق بيزيت- رام الله كان الوالد، رحمه الله، يعرفها جيداً ويسيرها على الأقدام في صباحه في طريقه إلى المدرسة كل يوم – إبراهيم علوش).

وهناك دلائل تشير إلى تعسف في ربط أسماء الأماكن بالأقوام، حتى أن د. صليبي يعتبر الحثيين قوماً من الجزيرة العربية، ويشير إلى "الحاتة في منطقة الليث والقوا في زحال ألمع... ووادي حثي في زهراه، وآل حثا حث في اقسام..." (ص. 261)، بينما الحثيون شعبٌ معروف، ووجوده (كاحتلال) في سورية ثابتٌ تاريخياً، وهناك إشارات إلى وجود جاليات منه في فلسطين، وهو شعب هندي أوروبي.

إذن، ما زلنا بحاجة إلى مسح جغرافي: لننتعرف إلى أسماء المواقع المأهولة والمهجورة، ولنعرف أماكن القرى والمدن التي زالت من الوجود. ويدل كتاب د. صليبي على توافر معلومات هامة في هذا الصدد عن الجزيرة العربية، وخاصة المملكة السعودية، فمتى تتوافر المعلومات الحديثة عن أنحاء الوطن العربي الأخرى؟

هل يعني هذا أننا نؤكد أن التوراة جاءت من فلسطين، وأنها لم تكن من جزيرة العرب؟

إننا هنا نود أن نعلن اتفاقنا مع د. صليبي، بأن التوراة جاءت من جزيرة العرب، لا لأن الأسماء الواردة في التوراة موجودة في الجزيرة، فهذا موضوع آخر، بل لأن هنالك مجموعة حقائق تؤكد هذه الحقيقة، ومنها:

1 – أن التوراة تؤكد، بغض النظر عن رأينا ورأي العلم فيها، من حيث أنها تاريخ، أن إبراهيم كان آرامياً تائهاً خرج من أور الكلدانيين إلى حران، ومنها إلى شمال سورية، ومن ثم إلى فلسطين، فمصر، فالعودة إلى فلسطين، والموت فيها. وأن أولاده وأحفاده لم يقطعوا عن مصر وحران، وظلوا يتزوجون ويتاجرون ويهاجرون مع سكان هذين الموقعين. أما إسماعيل، وأمه هاجر المصرية، فقد سكنوا جزيرة العرب. وبالتالي، فإن التوراة لم تعزل بني إسرائيل عن الجزيرة ووادي الرافدين ووادي النيل. وهكذا، ولد موسى في مصر، وتزوج من مديان، إلخ... (المعنى هو استحالة فصل فلسطين عن وادي النيل ووادي الفرات والجزيرة العربية وسورية، كما يدرك القارئ النبيه، وبالتالي استحالة الحديث عن إنتاج فلسطيني فطري للتوراة – إ. ع). وتظهر التوراة العبريين على أنهم قلة، من عهد إبراهيم حتى دخول فلسطين، بقيادة يشوع، وأنهم مستضعفون. ويثبت تاريخ بني إسرائيل في فلسطين، كما يقدمونه، على أنهم ظلوا أقلية، وظلت فلسطين عامرة بجماعات أخرى، تذكرها التوراة، وحتى "أورشليم" عينها، لم تكن "عبرية" كلياً، أو يهودية تماماً، في أي يوم من الأيام.

2 – أن اللغة التي تسمى عبرية، سواء كانت الآرامية التي "دونت بها الأقسام الأساسية من التوراة، أو الكنعانية السابقة عليها"، كانت، كما يقول د. صليبي، "عبارة عن لهجة من لغة "سامية"، كانت منتشرة في الأزمنة التوراتية في أنحاء مختلفة من جنوب شبه الجزيرة العربية وغربها، ومن الشام، بما فيها فلسطين" (ص. 29)، وكانت هذه اللغة تعرف بلغة كنعان (ص. 244). وقد شوشت هذه الحقيقة كثيراً من الباحثين الذين اعتبروا العبرية لغة مستقلة، ولم يعرفوا أنها جزء من لغة كانت تسود الجزيرة ووادي الرافدين والشام ووادي النيل، إن لم نقل الوطن العربي الحالي كله. ويتضح مثل هذا التشوش لدى باحثين مثل إمانويل فيليكوفسكي، مؤلف كتاب رمسيس الثاني، وكتاب شعوب البحر وعصور الفوضى، وكتب أخرى.

ويشير مؤلف كتاب رمسيس الثاني إلى أن "النتيجة المقبولة عموماً هي أن الكلمات العبرية (الواردة في نصوصٍ مصرية يذكرها) اكتسبها المصريون من سكان كنعان، وأن سكان فلسطين ما قبل الإسرائيليين، الذين يقال عنهم أحياناً أنهم من أصل سامي (سفر التكوين 18:9) تكلموا لغة سامية عبرية. وهذه النتيجة التي تدل عليها الكلمات العبرية المقحمة في النصوص البابلية



العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

لرسائل تل العمارنة المرسله من فلسطين، اعتبرت لا خلاف فيها، منذ اكتشاف نصوص رأس شمرا“ (رمسيس الثاني، ص. 78). ويشير المؤلف المذكور، أكثر من مرة، إلى اكتشاف نصٍ عبري في جيبيل (ص. 80)، ويذكر أحياناً الحروف العبرية (الفينيقية) (ص. 81، و ص. 89). ولعل من أهم ما يطرحه د. صليبي في كتابه ضرورة إعادة النظر في العلاقة بين العربية والكنعانية، وفي التصنيف الجغرافي للغات ”السامية“ (ص. 17)، وهو ما نتفق معه فيه. وكون العبرية ليست لغة مستقلة، إنما هي جزء من تراث المنطقة، يجعل التوراة جزءاً من أدبنا العربي القديم الذي سموه أدب اللغات السامية.

يقول الدكتور أنيس فريحة أحد علماء اللغات السامية في ذلك: ”جاء العبران القدماء أرض كنعان غزاةً، وكان لسانهم سامياً آرامياً لا نعرف خصائصه على وجه التدقيق، لقلّة المصادر الكتابية التي تعود إلى ذلك الزمان. وبما أن الغزاة كانوا أقلية، وبما أن هذه الأقلية كانت دون أهل البلاد حضارة وثقافة، فإنها اقتبست الحضارة الكنعانية، ومن جملتها اللغة. وفي الواقع إن العبران كانوا يسمون لغتهم ”شفة كنعان“، أي لغة كنعان“ (ملاحم وأساطير من رأس شمرا – دار النهار، ص. 242).

ومن المؤسف أن الدكتور صليبي لم يُشر في هذا المجال إلى أبحاث الباحثين الذين سبقوه، وإلى المقارنات التي عقدها، ومن هؤلاء، الدكتور أحمد سوسه، صاحب كتاب ”العرب واليهود في التاريخ“، الذي أفرد لإثبات هذه الحقيقة قسماً من كتابه (الصفحات 412-465)، مقدماً استشهادات عديدة لعلماء وخبراء أجنبية.

ويشير د. أحمد الشلبي في كتابه ”مقارنة الأديان 1 – اليهودية“، اعتماداً على ول ديورانت، إلى أن يهوه إله كنعاني، وقد وجدت آثار باسمه في فلسطين تعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد (ص. 154).

ويقدم فيلو كوفسكي مقارنات بين ما تذكره المصادر العبرية والمصرية حول معركة قادس – كركاميش، ليثبت الاتفاق الكامل، معتمداً على كتب العهد القديم من جهة، وعلى النصوص التي كشفتها الحفريات من جهة أخرى (كتاب ”رمسيس الثاني“، ص: 38-39).

التوراة جزء من تراث العرب، وهذا ما أثبتته مكتشفات إيبلا، كما ذكرت الصحف، وإن كنا لم نقرأ النصوص بعد. فهل نهمل هذا كله، لنتمسك بأسماء الأماكن؟ ولدينا حضرموت وصور وصيدا وجيبيل في الجزيرة العربية، وأسماء مماثلة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط في لبنان وتونس، ولدينا لبنان المعروف، ولبنان الذي يشير إليه الدكتور صليبي في الجزيرة العربية (ص. 151).

ولكن هل يعني هذا أن العبرانيين أقاموا دولةً في عسير؟ ليس بالضرورة. وليس هناك إثبات تاريخي على تلك الفرضية. وما طرحه الدكتور صليبي بحاجة إلى أدلة علمية، وهو ما يطلبه من علماء الآثار (ص. 65).

إن كتاب د. صليبي لا ينفي أن تكون لليهود صلةً بفلسطين. وهذا يطرح علينا، إذا قبلنا فرضيته، أن نعتقد أن العبرانيين أقاموا ملكاً في الجزيرة العربية أولاً، ثم انهار هذا الملك، فهل نستطيع الافتراض أن إبراهيم هاجر بعد هذا الملك، ثم قامت دولة يهودية في فلسطين بعد ذلك، على أساس وعدٍ من ”يهوه“، كما تقول التوراة، لتكون تعويضاً عن الملك الضائع؟

وما علاقة فراغ مصر الذين رعوا يوسف، في خلق هذه الدولة، مع أن موسى زعم أنه هرب من مصر بسبب ظلم فراغتها، في الوقت الذي ظلت فيه ”الدولة العبرية“ موقعاً متقدماً مصرياً إلى درجة اضطرت ملوك بابل إلى تدميرها وسبي شعبها. ”وكان الحزب المصري في قصر صدقي ملك إسرائيل قوياً، فلم يسمع لصوت أرميا النبي الذي نصح بعدم محاربة البابليين، ولذلك سجن أرميا، وأعلن صدقي الذي عينه سنحاريب الثورة اعتماداً على فرعون مصر، مما اضطرت سنحاريب لخوض حرب التصفية المعروفة“ (رمسيس الثاني، ص: 52 – 57).

إن كل هذا بحاجة إلى دراسة من جديد.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد



وما دامت التوراة، كما تشير المراجع التاريخية، قد كتبت في السبي، فلماذا لا تكون كل الادعاءات حول فلسطين مجرد مبرر لإثبات جماعة في فلسطين، تلعب هذه المرة دوراً لمصلحة الغزو الفارسي، كما حدث؟

إننا نتفق مع الدكتور صليبي بأن جغرافية التوراة بحاجة إلى دراسة، ولكننا نصر على أن هذا يجب أن يتم انطلاقاً من مناقشة تاريخيتها، لا بافتراض صحة تاريخيتها. وهناك الكثير من المكتشفات التي تساعدنا في تحقيق هذه الغاية، كما أن هنالك الكثير من الأعمال الكشفية التي يجب أن تُنجز في كل أنحاء الوطن العربي، ومنها فلسطين وسورية ولبنان والعراق ومصر.

بعد هذا كله، هل يتضمن القول إن التوراة جاءت من جزيرة العرب مساساً بأمننا القومي؟ هنا يجب أن نقف. إن احتلال الحركة الصهيونية فلسطين قام على أساسين: الأول، الوعد الإلهي الذي تؤكد كُتب اليهود المقدسة، والثاني، اعتبار كل يهود العالم نسل يهود فلسطين القدماء. وعلى الرغم من أننا لم نعتزف بالدعوتين واعتبرناهما مجرد ادعاء، فإن هذا لم يمنع دول العالم لأسباب أخرى من أن تقبل دعواهم. وها هو الكيان الصهيوني يقوم بيننا، فكيف يمكن أن يستثمر اعترافنا بأنهم وجدوا قديماً في جزيرة العرب، وفلسطين، وبأن لغتهم هي لغتنا وتراثهم هو تراثنا؟

إن هذا سوف يستغل لغرضين: الأول، إقناع جماعات منا بأنهم عاشوا معنا قديماً وبأنهم منا، وبالتالي فلماذا نقاتلهم؟ والثاني، إعطاء المزيد من المبررات للعالم بأن ينظر لوجودهم بيننا نظرة طبيعية. وسوف لا يفيدنا كثيراً أن نقول:

ليس لليهود اليوم علاقة بالعبريين القدماء. فاليهودية اليوم دين، يضم جماعات من قوميات مختلفة، وليسوا قومياً من نسل العبريين القدماء.

وبعد ذلك كله هل نغير التاريخ خوفاً من الادعاءات؟ إن هذا لا يحميننا. فلندرس التاريخ جدياً، ولنتعرف إلى تاريخنا، ولنكشف كل خباياه، ولنبن قوتنا اللازمة لحماية أرضنا وشعبنا. ولنكشف ادعاءات الأعداء بالأدلة الحقيقية، وبالدراسة العلمية، وبالدعوة العلمية أيضاً.

وأخيراً ما زالت هناك قضايا كثيرة يطرحها كتاب الدكتور صليبي بحاجة إلى مناقشة، نأمل أن يسمح الحيز بمناقشتها، وكم تمنينا لو انشغل علماءنا بـ"اللغات السامية" في مناقشة ما طرحه د. صليبي، وأساتذة الجغرافيا في مناقشة أطروحات د. صليبي حول جغرافية التوراة، ومؤرخون في دراسة جغرافية التوراة بتاريخيتها، لأننا بذلك نفي جهد د. صليبي حقه، ونعطي وطننا وشعبنا حقهما.

كيف جاءت التوراة من جزيرة العرب؟

جاءت التوراة من جزيرة العرب لا باعتبار المكان، بل باعتبار الثقافة، لأن سكان وادي الرافدين والشام ووادي النيل والمغرب العربي، جاءوا من الجزيرة، كما يدل تاريخ الهجرات المعروفة حتى الآن. ولأن الثقافة السائدة، منذ الأزمان المعروفة تاريخياً، هي ثقافة هذه الأقوام، على الرغم من محاولات أقوام أخرى كالحثيين (الأناضول) والعيلاميين (فارس) والسومريين (!) السيطرة على المنطقة.



وهناك مؤشرات على قوة هذه الثقافة، وقدرتها على التغلغل فى الشعوب الأخرى، ومن ذلك:

- 1 – فلقد ”استخدم الملوك الحثيون لغتين فقط، هما الحثية والأكدية فى وثائقهم الرسمية“، وكانت الأكدية التى عرفت لدى الحثيين بأنها ”بابلية“، ”مستخدمة على نطاق واسع، فى الشرق الأدنى، للمراسلات والوثائق الدبلوماسية، ذات الطابع الدولى... ولذلك فإن الكثير من الوثائق والرسائل الحثية مكتوبة بالأكدية كلياً... وبالإضافة إلى ذلك، فإن الكلمات الأكدية شائعة فى النصوص المكتوبة بالحثية“ (و. ر. جرنى، ”الحثيون“، ص. 119، وص. 127).
- 2 – أن أسماء ملوك الفلسطينيين ومدنهم (أى قبائل الفلسطو) – وهم الذين يُقال عنهم أنهم شعب هندي أوروبى – أسماء منحدره من ”لغة سامية“، وليس هناك تراث مكتشف للفلسطينيين المشار إليهم يدلنا على لغتهم الأصلية غير الأسماء.
- 3 – أن اللغة الآرامية أصبحت اللغة الرسمية فى فارس ولغة الأرمن، قبل أن تسود فيهم اللغة الهندية الأوروبية.
- 4 – أن الحرف ”الفينيقي“ انتقل إلى أوروبا عبر اليونان، ولكنه انتقل إلى جنوب شرق آسيا، منذ القديم، حيث ما زال الحرف الرسمى للكتابة فى لاوس، حتى الآن.
- 5 – أن الحرف العربى أصبح الحرف السائد فى الكتابة لدى الفرس والأترك وعدد من الشعوب الإسلامية، حتى فى الصين.

ولقد عاش العبرانيون، كما تقول التوراة، من عهد إبراهيم إلى السبي، فى المنطقة الممتدة من أور فى جنوب العراق إلى حران فى شماله، ومنها إلى حلب فالخليل فى فلسطين فمصر، ومن مصر إلى شرق الأردن والجزيرة العربية. وهذا يعنى أنهم بغض النظر عن أصلهم السلالى، وهو ما سنتعرض له فى مكانٍ آخر، خضعوا للتأثيرات السياسية والثقافية السائدة فى هذه المنطقة.

وفى الوقت الذى جعله التوراة وقت هجرة إبراهيم، وإقامة العبرانيين فى مصر، وانتقالهم إلى فلسطين، كانت مملكتا آشور وبابل من جهة، والفراعنة من جهةٍ أخرى، أقوى دول المنطقة. وعلى الرغم من بروز الحثيين فترة، والعلاميين أخرى، فإن السطوة السياسية والنفوذ الحضارى كانا لحضارة وادي النيل والرافدين 500-2500 قبل الميلاد، وحين غزا الفرس بابل، ووصلوا مصر، وسقطت السلطة السياسية بيدهم، تبنى الفرس اللغة الآرامية.

فماذا يمكن أن تفعل جماعة صغيرة نسبياً، بدوية، كما تصفها التوراة، وكما تدل وقائع التاريخ، فى مثل هذا الجو؟ لقد كان طبيعياً أن تبنى اللغة السائدة والثقافة الشائعة، وهذا ما حدث. فلقد تكلم العبرانيون لغة سموها هم ”شفة كنعان“ (أنيس فريجة، ”ملاحم وأساطير من رأس شمرا“، دار النهار للنشر، ص. 24)، وهذا الاعتراف العبرانى المكرر تاريخياً، كافٍ للدلالة على أن العبرانيين تبنوا الثقافة السائدة، سواءً كانوا من أبنائها أم كانوا خليطاً من بقايا أقوامٍ مختلفة، تعيش على الأرض التى هى اليوم أجزاء من الوطن العربى.

وهذه الحقيقة التى أكدها الدكتور صليبي بأسلوبه تقوم على إجماع تاريخى من قبل، وسنذكر هنا بعض الأمثلة:

1 – جاء فى أطلس الكتاب المقدس: ”إن الشريعة الإسرائيلية لها ما يماثلها كخلفية قديمة فى شرائع الشرق الأدنى، والتى منها الشريعتان السومرية والبابلية المعروفتان لدينا الآن“، ويضيف: ”إن الكثير من العادات المذكورة فى قصص سفر التكوين تتفق مع الحياة فى أرض الرافدين سنة 1500 قبل الميلاد“.

وحين يتحدث الأطلس المذكور عن الخروج من مصر يقول: ”ليس فى المصادر المصرية التاريخية أى ذكر لوجود بني إسرائيل فى مصر، أو إخراجهم منها، لكن هناك انطباقاً كبيراً بين القصص المصرية والقصص الواردة فى العهد القديم“.

ويشير الأطلس المذكور إلى علاقة العبرانيين بالكنعانيين فيقول: ”ولم يحرز الإسرائيليون السيطرة على أرض كنعان إلا تدريجياً، وفى تلك الأثناء أخذوا عن جيرانهم الكنعانيين بعض العادات وأساليب العبادة“ (”أطلس الكتاب المقدس“، حرره الأستاذ ه. ه. رولى: دار النشر المعمدانية، بيروت 1983، ص: 27-28).

2 – ذكر جيمس هنري بريستد فى كتابه ”العصور القديمة“: ”إن أصل الأمة العبرية من بادية العرب“، ويضيف بريستد: ”كانت هذه الأمة فى بدء أمرها قبائل رحلاً، تنتقل بمواشيها على هبتها،



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

من مكانٍ إلى مكان، ارتياداً للماء والكأ، حتى قويض لها الوصول إلى فلسطين، فجعلتها وطناً ثابتاً لها“.

ويقول جيمس هنري بريستد: ”و حين دخل العبرانيون فلسطين، وجدوا فيها الكنعانيين، يقيمون في مدنٍ زاهرة، تطوقها الأسوار الضخمة، فلم يستطيعوا أن يفتحوا منها إلا المدن الضعيفة“، ويضيف بريستد: ”ولا يخفى أن هذه المدن، التي عجز مهاجموها عن افتتاحها، كانت ذات حضارة قديمة، نشأت منذ ألف وخمس مئة سنة، ومنازل متقنة، حوت كثيراً من أسباب الراحة والرفاهية، وحكومة، وصناعة، وتجارة، وعلم، ومعرفة بالكتابة، وديانة: حضارة اقتبسها أولئك العبرانيون السذج، من مواطنيهم، لأنهم لم يستطيعوا أن يعيشوا بمعزل عن أصل المدن الكنعانية التي عجزوا عن افتتاحها...“ (ص. 177).

3 – وقدم د. أحمد سوسه في كتابه ”مفصل العرب واليهود في التاريخ“ نماذج مختلفة لآراء مماثلة، منها مثلاً:

(أ) وجهة نظر الأستاذ س. ه. هوك: ”أصول الطقوس السامية القديمة“ الذي يقول: ”إننا الآن في وضع أكثر ملائمة من أي وقت مضى لتوضيح علاقة العناصر الأساسية للديانة اليهودية بشبكة الشعائر الدينية التي كانت سائدة في البيئة السامية القديمة، من وجهة نظر تاريخية جديدة“ (د. أحمد سوسه: ص. 416).

(ب) وجهة نظر الأستاذ أوليرايت، صاحب كتاب ”الشعب اليهودي قديماً وحديثاً“ الذي يقول: ”لقد أصبح مؤكداً الآن أن القصص العبرية المتعلقة بالخليقة والطوفان والجنة الخ... إما أن تكون مأخوذة عن السومريين مباشرة، أو مأخوذة عن طريق الأكاديين والعموريين“ (د. أحمد سوسه: ص. 343).

وكتاب الدكتور سوسه غنيٌّ بمثل هذه الأمثلة.

وقد أدى هذا أن تنقل التوراة قصة الخلق والبعث والقيامة وآدم وحواء وقابيل وهاويل والطوفان وقصة يوسف وقضايا الشريعة من التراث السومري الأكادي البابلي المصري السابق على التوراة، ولقد دلت على ذلك المكتشفات العديدة في وادي الرافدين والنيل والشام.

ولعل من أهم ما يجب أن يذكر هنا قصة ولادة موسى، ذلك أن سرجون الأكادي (2381-2316 ق. م.) يقدم نفسه على أن أمه ولدتته سراً ”فخبأته في صندوقٍ من البردي، وأحكمت بابه بالقير، وألقته في نهر الفرات“ (د. أحمد سوسه: ص. 436).

وهناك قصيدة كتبها شاعر آشوري، في القرن السابع قبل الميلاد، تروي هذه الحادثة:

”أمي كانت ”متقلبة“، ووالدي لم أعرفه.
أعمامي أحبوا التلال وسكنوها
أزوبيراتو، مسقط رأسي، تقع على الفرات.
حبلت بي أمي المتقلبة، وبالسر ولدتني.
في النهر ألفت بي، ومياها لم تبتلعني.
بل حملني، وإلى ”أكي“ البستاني أخذني
عني أكي بتربيني، وكابن له اتخذني
ثم جعلني أكي البستاني لديه بستانياً
وأنا بستاني منحتني عشتار المحبة والنعمة
فمارست الملك تلك السنين“

(د. وديع بشور، ”آشور وأكاد“، دمشق 1981، ص: 46-47)

إن اكتشاف التشابه هذا، وحتى التماثل، ما بين التوراة وأداب الحضارة العربية القديمة، كان نتيجة جهد علماء كبار، وكان يستحق من الدكتور كمال صليبي أن يشير إليه، وهو يحاول تأكيد حقيقة، أكدتها الأبحاث والدراسات السابقة...



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

ولقد كانت العودة إلى هذه الأبحاث والدراسات التي تؤكد اعتماد التوراة على هذا التراث ضرورية لسببين:

الأول، لأن الدراسة العلمية تقتضي الاستفادة من هذه الدراسات والإشارة إليها،

الثاني، لأن العودة إلى هذه الدراسات ستثبت للدكتور صليبي أن ما يربط التوراة بجزيرة العرب ليس فقط أسماء القرى الواردة في التوراة، والتي ما زالت موجودة في الجزيرة، بل المضمون واللغة أساساً، وهذا ما يمكن إثباته بالرجوع إلى النصوص المتوافرة.

الصفحة الثقافية: أضواء النجومية ووحل التطبيع

طالب جميل



لا يحتاج كثيرٌ من نجوم الفن العرب الذين وصلوا إلى مراحل متقدمة من الشهرة والمجد والثراء إلى أن يورطوا أنفسهم ويلوثوا تاريخهم ويدنسوا إنجازاتهم بفضيحة كبيرة وعار مثل عار التطبيع مع العدو الصهيوني، لكن هناك فئة منهم تأبى إلا أن تكون لها بصمة قذرة تطغى على أي منجز فني جميل سبق تقديمه، وتأبى ألا تموت إلا وهي مكلفة بعار التطبيع والتعامل مع العدو الأول للأمة.

هناك كثير من الدوافع التي تجعل مثل هؤلاء المشاهير يسرون بهذا الاتجاه، فبعضهم يسير بسوء نية وهو يعلم جيداً بخطورة ما يفعله، والبعض الآخر يعتقد أن حسن النية ستعفيه من المسؤولية الأخلاقية والوطنية والمجتمعية والدينية، علماً بأن مسألة كهذه تتساوى فيها سوء النية مع حسنها، ففعل التطبيع خيانة، والخيانة لا تكرر ولا تؤخذ بحسن نية ولا تُخدم بأي شكل من الأشكال قضايا الأمة.

يندفع البعض باتجاه التطبيع لغايات الحصول على مزيد من الشهرة والظهور في بعض المحافل العالمية التي يوجد للكيان الصهيوني نفوذ فيها سواء بشكل مباشر أم غير مباشر، وبعضهم يذهب من أجل الحصول على مكاسب مادية أو على جوائز أو فرص للمشاركة والتواجد في بعض الأعمال العالمية. وهناك فئة من الفنانين والمشاهير ليس لديهم حد أدنى من الوعي أو الإدراك لخطورة التطبيع فيرون في المسألة أمراً عادياً من باب التواصل مع دولة مثل أي دولة أخرى في العالم.

في حقيقة الأمر، وبعد مرور كل هذه السنوات على احتلال فلسطين واستيلاء الصهاينة على أراضٍ عربية أخرى، وفي عصر الانفتاح وسهولة الحصول على المعلومة، لم يعد هناك إنسانٌ عربيٌّ عاقلٌ لا يدرك مدى خطورة التعامل مع الصهاينة ولا يستوعب كمية السم الموجودة في أي نشاط تطبيعي، أو ليس لديه تعريف واضح للخيانة والتآمر على وطنه وأمتة، لذلك لا يمكن اعتبار أي مطبوع بأنه غير مدرك لما يفعل خاصة وأن فئة الفنانين والمشاهير تعتبر فريسة مرغوبة ومستهدفة نظراً لكونهم يعتبرون شخصيات عامة ويمتلكون كثيراً من القدرة والتأثير على الرأي العام.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

لكن بالرغم من خطورة فعل التطبيع ومخالفته لكافة المبادئ والقيم والثوابت، إلا أن ذلك لم يمنع بعضاً من الفنانين والنجوم العرب من ممارسة مثل هذا الفعل المشين، فمثلاً في حديثٍ تلفزيونيٍ مصورٍ يقول الفنان المصري العالمي عمر الشريف أن السادات كلفه بمهمة الذهاب إلى السفارة الصهيونية في باريس للطلب من السفير الصهيوني أن يتحدث هاتفياً مع (مناحيم بيغن / رئيس الوزراء الصهيوني آنذاك) وأن يخبره برغبة السادات بعقد اتفاق سلام وزيارة الكيان، وكان له ما أراد، حيث تمكن عمر الشريف من الاتصال مع (بيغن) وأخبره بأن الرئيس السادات يرغب بزيارة الكيان لعقد اتفاق سلام، فأخبره (بيغن) بأنه يرحب بذلك وإذا زارهم السادات فسيستقبلونه كـ (المسيح)!!

أيضاً الكاتب المسرحي المصري علي سالم مؤلف المسرحية الشهيرة (مدرسة المشاعين) كان من أوائل المؤيدين لمبادرة السادات بعقد اتفاق سلام مع الصهاينة، وكان يعتبر من أكثر المتحمسين للتطبيع من المثقفين العرب، ولم يتنازل عن موقفه هذا رغم الإدانة والرفض والاستنكار الذي تعرض له والأجواء العدائية التي عاشها مع عددٍ كبيرٍ من زملائه وغالبية الشعب المصري، وفي العام 1994 قام بزيارة الكيان الصهيوني والتقى هناك شخصيات صهيونية، وفي عام 2005 قررت جامعة بن غوريون الصهيونية منحه الدكتوراه الفخرية.

في العام 2010 تورط فنان وممثل مصري مشهور كخالد النبوي وانجر وراء خدعة "العالمية" ليشارك في فيلم أمريكي إلى جانب ممثلة صهيونية مبرراً ذلك بأنه يدافع عن قضايا العرب حين أدى في الفيلم دور عالمٍ عراقيٍ ينفي امتلاك بلاده لأسلحة دمار شامل.

أما عمرو واكد وهو ممثل مصري أيضاً لا يقل شهرة عن النبوي فكانت ورطته أكبر حيث شارك في العام 2007 في فيلم بريطاني أمريكي يتناول قصة حياة الرئيس العراقي الشهيد صدام حسين، وكان بطل الفيلم فناناً صهيونياً قام بتأدية شخصية صدام حسين، وللأسف صرح واكد لاحقاً بأنه لا يمانع من عرض الأفلام الصهيونية في مصر، وأشار إلى أن التطبيع لم يعد تهمة لأنه نية، والتطبيع معناه أن يفتنع الشخص بالأفكار الصهيونية وهذا ما لم يفعله! خالد أبو النجا وهو ممثل مصري آخر كان قد شارك في مسلسل أمريكي مع ممثلة صهيونية، علماً أنه سبق وأن شارك في أحد الأفلام الفلسطينية وصرح حينها قائلاً: موضوع التطبيع فكر متخلف وأفكار بالية، ووصف رفض الفنانين العرب زيارة الأراضي الفلسطينية خوفاً من التطبيع بأنها فكرة متخلفة!

نصيرة ثورة الخراب وبيع الدمار والفتنة المغنية السورية أصالة نصري لم تكتفِ بالتحريض على خراب بلدها والاصطفاف إلى جانب المعارضة المدعومة من كافة القوى المعادية للعرب بل قامت في العام 2013 بزيارة الأراضي الفلسطينية وإحياء حفل هناك لتكون أول مطربة سورية تحيي حفلاً في فلسطين منذ عام 1967 بعد صدور قرار بحظر التعامل مع دولة الكيان.

رسام الكاريكاتير المصري المعروف جورج بهجوري زار قبل عدة سنوات الكيان الصهيوني للمشاركة بمشروع (كاريكاتير من أجل السلام) وبرر فعلته بقوله: إن رسمة كاريكاتيرية قد تحدث ابتساماً على وجه جندي تمنعه من إلقاء قنبلة في يده!

أما الشاب خالد مغني الراي الجزائري فقد اعترف بأنه أحيى حفلاً في العاصمة الإيطالية روما مع مغنية صهيونية خلال لقاء حول السلام حضره وزير الخارجية الصهيوني شيمعون بيريس في حينه، ولما سئل عن أسباب ذلك قال: كان الهدف تقديم صورة أخرى للفلسطينيين للرأي العام الغربي مفادها أن العرب جميعاً لا يفجرون أنفسهم فقط، بل أن من بينهم دعاة سلام، وهذا ما فعله أيضاً مواطنه رشيد طه الذي سبق أن أحيى حفلاً غنائياً في مدينة القدس المحتلة، وقد رحبت الصحافة الصهيونية بهذا الحدث.

قد لا ينتبه كثيرٌ من الفنانين ونجوم الفن العرب إلى أنهم من أكثر الفئات استهدافاً وأنهم يتعرضون لإغراءات كثيرة للانزلاق في مستنقع التطبيع، وقد لا يعلمون أن صاحب القرار السياسي في المؤسسة الصهيونية، ومن يتولى إدارة ملفات التطبيع مع العرب، يرحبون دائماً وبشدة، بل ويسيل لعابهم حين يصطادون فرائس بحجم النجوم والمشاهير ويوقعونهم في فخ التطبيع لأنهم يعلمون جيداً الرصيد الذي يتمتع به أي نجمٍ منهم لدى الجمهور العربي، لكن الفنان والنجم الحقيقي هو الذي ينحاز دائماً لفطرته القومية وقضايا أمته ولا يبيع دماء الشهداء وتضحيات أبناء أمته بأي ثمن، فالتطبيع يعني الاعتراف، والاعتراف يعني القبول والتسليم بأحقية الصهاينة بالوجود في أرضنا، وهذا يعني التنازل عن كل القيم والثوابت العروبية التي سنظل مطالبين بالحفاظ عليها ما حيينا.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

قصيدة العدد: قصيدة ذكرى اللواء/ سليمان العيسى*

مخضوبةً بلطي الكفاح
على أكاليل الأضاحي
لِ مَعْصَبَاتٍ بالجراح
شكوى، إلى جَمراتٍ ساحِ
دَرَجَنَ في هوج الرياح
وأنت تلهمني صدأحي
فظ قصة الوطن المباح
لأعود محترق الجناح!

عشرون، داميةً الخطى
مرّت كحالكَةِ السواد
عشرون، من عمر النضا
من ساحةٍ عطشى، ولا
عشرون يا بلدي الصغير
غثبت ملحمةً اللهب
عشرون، أوقظها فأو
أي الجراح أمسه

...

أحسّها ضَرَبَاتٍ قلبي
وزقزقات الفجر دربي
على الرصاص فتحتُ هدي
شعري كما كانوا، وحبّي
ح بكفّ دون العشر، زغبِ
البعث، أترابي وصحبي
فدمدمَ الإصصارُ قربي
يا رياح البغي، هبّي!

عشرون، يا وطني الصغير
درب العروبة والكفاح
لم أنس يا بلدي، ففبك
أطفالك الثوار هم
حملوا العقيدة والسلا
الهادرون على طريق
لو شئت ناديت الصقور
العائدون غداً، وهبّي

...

ترايبك العطر الشهيد
على فم الطفل الشريد
كي تجلجل في نشيدي
بنظرة الإلف الودود
حطامِ أجنحة الفهود
وخلفهم مزق القيود
يضيق كبرك بالسجود
العود، جبار الصمود

قالوا: غداً ذكرى اللواء
قالوا، فتمتت الجراح
وتزاحمت عشرون عاماً
ورميت داميةً الطريق
أهوى الصخور الحاملات
أهوى طريق السائرين،
أهواك يا بلدي الصغير
وتعيش تحت النير، صلّد

...

أجفاني على مأساة جيل
ينزحون مع الأصيل
على الهوان، على الدخيل
في الجبال، وفي السهول
الصددمات شكوى من كليل
بمهجة الوطن القليل
تلوي عناد المستحيل
شعبي، من النبع الأصيل

قالوا: فداً، وفتحت
ولمحت أتراب الطفولة
الصبية المتمردون
حملوا قلوبهم الصغيرة
وتمزقوا، لم تسمع
بعيونهم خلج الحياة
وعلى الشفاه رسالة
عربيهِ الإشراق من

...

المهد يا بلدي السليب؟
تصوغه أبداً لهيباً؟

أهزّ جرحك يا تراب
أعرفت شاعرك الصغير



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

الشعر قافيةً خضيباً
لتنهل الفجرَ القريبَ
الكبرى، أترمُّفها غريباً؟
حَم في انطلاقِها الغيوبِ
شُد حيث أومات القلوبِ
جك عرسها خمراً وطيباً

...

في دمي جرحٌ يصيح؟
عقيدةٌ، ومدىً فسيح
والمعاقيل، والسفوح
معاركٌ حمراً، وسوح
هدرات ثورتنا يلوح
الأرض أرضي، والجريح
حطمَ شفرة الموت الذبيح
فمه لجلادي الضريح
اليوم، لن تدمي خطانا
لترتوي الجريمة من دمانا
فوق قبرهم كلانا
ولن تذر على حمانا
في القيد مرقنا صباناً
كنا اليتامى في ثرانا
كيب والظلام على سنانا
ألقى الخلود لها العنانا

...

عيني أغشية الضباب
ضحكات جنات رطاب
على سواقيك العذاب
في ضلوعي كالشهاب
حطبٌ لشعلتها شبابي
المهد في حلك الصعاب
في النجود، وفي الشعاب
الطاغي، وتمعن في الغلاب

...

قصيدةٌ نشوى، وشاعرٌ
بأرضنا، وزئير تائز
ألف فجر في الجزائر
السمراء تعبق بالبشائر
موكبٌ للخلد هادز
وغطت الأفق الكواسر
لتحتمي خلف المجازز

لولاك لم تعرف شفاه
لم تحترق منها العيون
فجرت نبع الوحدة
وضاءة الخطوات تز
وتطل كالعلاق تح
سنعود، نعقد في مرو

أهز جرحك، والعروبة
أطفالك المتمردون
ميداننا هذي الصحارى
ميداننا الوطن الكبير
ميلاد تاريخ على
غيري المشرد فوق هذي
غيري الذي سيموت
أنا للحياة... وفاغر
لن يهزل التاريخ بعد
في الشوك، لن نظما
لن يطردوا طفلي، سنهرج
كانت شمس للطغاة
حسبي، وحسبك أنا
حسبي، وحسبك أنا
عدنا، لتحترق العنا
عدنا... لنشرق أمة

أنا ما أزال أزد عن
وأراك يا مهد الصبا
رتلت أولى الغمغات
وحملت ثورتك المضيئة
نذرت لفكرتها دمي
كبر البراعم يا تراب
كبروا، فنورتهم دوي
تطغى الرياح، فتزحم

إننا على شفة الوجود
ورصاصة تلد الضياء
إننا على قمم "العرائس"
وعلى الخليج جباهنا
إننا على شفتي جمال
خلى على الدرب العبيد
وتفر أشباح الطغاة



لائحة القومي العربي

العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

الطريق إلى المقابر

من صمودك يا بلادي
الباسمون على الشداد
فهزها بيد الجهاد
الحواضر، والبوادي
بنة ينطوي ليل الحداد
ف غداً حكايات المَعَاد
موعدنا، ولو جُنَّ الأعادي
الكبرى، أضْمَكِ يا بلادي!

الثورة الحمراء تختصر

الصامدون، وليس أروغ
الثائرون على الهوان
جبلٌ تعطش للحياة
وتفجر الينبوع، فانتشبت
في النصر، في عرس العرو
بلدي، ستعذب في الضفا
يافا، لنا في الشط
في العيد، عيد الوحدة

...



*يحمل سليمان العيسى ابن لواء الإسكندرون السليب أرضه بين عينيه، ولا شكوى، إنه الوطن الصغير الذي انطلق منه شاعر البعث في رحلة العروبة والنضال، ووصل مشارف وطنه العربي الكبير من محيطه الهادر إلى خليجه، الوحدة حلم يهدده بين شغاف قلبه، والحرية هدف أفنى في سبيله حياة بأكملها، إنه اليمني حين تئن اليمن، والمغربي حين تناديه الأوراس، والعراقي حين تسرقه بغداد في سنة الكرى، وهو ابن اللواء السليب في أقاصي الشمال السوري في كل لحظة، لا يغيب عن باله، تضج في عروقه ذكريات الصبا فينفجر شعره حنيناً وإيماناً راسخاً بحتمية النصر وعودة الحق لأهله.

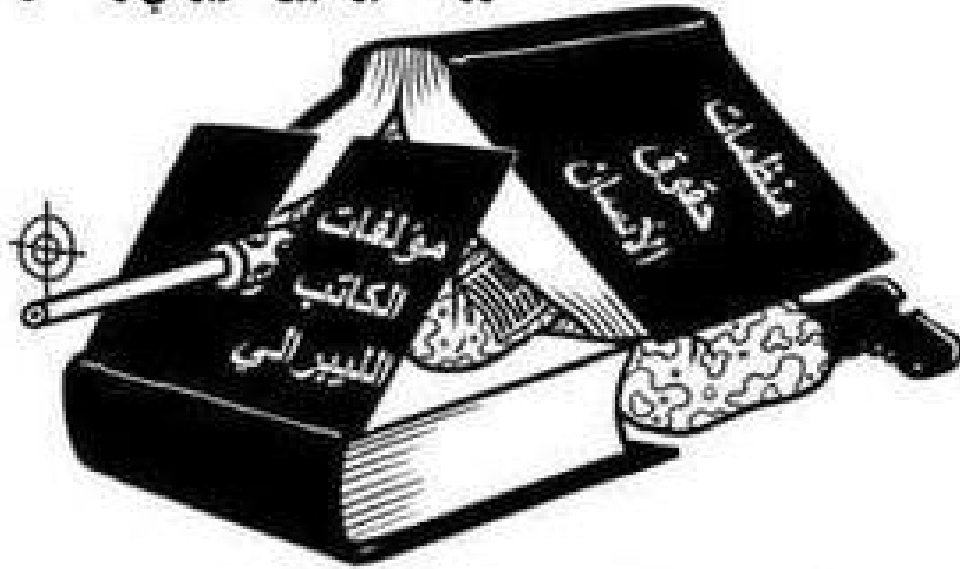
قصيدة ذكرى اللواء من منشورات الشاعر في الذكرى العشرين لسلخ اللواء العربي السوري من قبل الاحتلال التركي عام 1938.



العدد رقم (73) صدر في 1 كانون ثاني عام 2021 للميلاد

رسم العدد: الدور المشبوه بين الليبرالي والمحتل

الدور المشبوه بين الليبرالي والمحتل



انتهى العدد